حركة الأرض حول نفسها في القرآن الكريم

عبد الرحمن بن هشبول الشهري
كلية التربية - جامعة الملك فيصل - الأحساء
المملكة العربية السعودية

الملخص :
يتناول هذا البحث الآيات القرآنية الكريمة التي تتضمن الإشارة إلى حركة الأرض حول نفسها في القرآن الكريم . واتضح ذلك في كثير من آيات الليل والنهار وأظهر البحـث أن القرآن الكريم قد أشار إلى كيفية تلك الحركة من سرعة وبطء وانقلاب كما يتضمن البحث الحقائق العلمية المتعلقة بحركة الأرض حول نفسها . موافقة العلم الحـديث في حقائقه لإشارات القرآن الكريم. حول تلك الحقائق . وعدم تصادم الحقائق العلمية مع القرآن الكريم. ولم يتعرض البحث للنظريات العلمية أو يفسر الآيات على ضوئها.

مقدمة :

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه ومن والاه وبعد :

فإن هذا البحث الذي أطرحه بين يدي القارئ الكريم أهداف من ورائه إلى إثبات حركة الأرض حول نفسها قرآنياً . إذ يعتقد الكثير أن إثبات ذلك جاء به العلم الحديث فقط وأن القرآن لا دخل له فيه أو على الأقل لا يعارضه . وأنه ربما لا توجد آيات تشير أو تلامس تلك الحقيقة . وحيث إنه لا تعارض بين القرآن والحقائق العلمية . فقد بحثت وتلمست تلك الحقيقة في آيات القرآن الكريم. فوجدت أنه لم يصرح با . لأن التصريح با يتصادم مع ما هو مستقر ومعتاد عند العرب وقت التـ يل. حيث يعتقدون ثبوت الأرض وعدم حركتها . ويؤدي إلى تكذيب النبي - صلى الله عليه وسلم - والإعراض عن الإسلام . وإنما وجدت القرآن قد لامس هذه الحقيقة من خلال الإشارة إلى الليل والنهار لأن تعاقب الليل والنهار وحركة الشمس والقمر والنجوم كلها أمور معتادة ومحسوبة وملموسة عند العرب.

والواقع أن الآيات التي ذكرت الليل والنهار كثيرة جداً وقد ركزت فيها على ما رأيته أقرب للدلالة على حركة الأرض حول نفسها ولم أذكر الآيات الأخرى لاعتقادي أنا تحمل معنى زائداً غير معنى الحركة يجب تحقيقه مستقلاً . وعدم ذكره بصورة غير مكتملة .

وقد اعتمدت في شرح الآيات على أقوال المفسرين قدامى ومحدثين سواء بالمأثور أم المعقول. وعلى أقوال علماء اللغة والبلاغة . وعلى حقائق العلم الحديث واعتمدت على الأبحاث العلمية المنشورة حديثاً .

والواقع أنني لم أر من المفسرين القدامى (رحمهم الله) من استجلى حركة الأرض حول نفسها من خلال آيات الليل والنهار. وتعاقبهما . أو من خلال آيات أخرى . وقد رأيتهم أغفلوا بعض المعاني وقد ذكرت ذلك في مكانه . وذكري لإغفالهم تلك المعاني لا يعني بحال من الأحوال الهجوم عليهم أو التنكر لفضلهم وإنما يعني أن القرآن الكريم حمال أوجه وأنه ينبوع يتدفق بالعلم إلى قيام الساعة وأنم معذورون في ذلك . لأن معرفته تتوقف على مقدمات لم تكن معلومة لديهم وقتئذٍ . ولا أدعي أن ما ذكرته قد استنفذ معنى الآيات . وأنه المعنى الحتمي لها. وإنما أرجو أن أكون قد أصبت أو قاربت الصواب .

والواقع أن تحقيق مثل هذه الآيات الكونية عمل شاق للغاية لا يستكمله شخص وحده أو متخصص وحده وإنما يستدعي عملاً جماعياً تنهض الأمة لتحقيقه. لأن الآيات الكريمة الكونية تحمل معاني ومجالات متعددة. يعسر على شخص واحد الإلمام با.

ولكنه التسديد والمقاربة .

أسأل الله التوفيق والسداد . إنه نعم المولى ونعم النصير .

حركة الأرض حول نفسها في القرآن الكريم

المتأمل في القرآن الكريم وفي آياته التي لامست الأرض والشمس والقمر بخاصة والكون بعامة. يدرك من خلالها النظام المتقن الذي حكم به هذا الكون الفسيح وحكمت به هذه الأجرام السماوية المتعددة . ويدرك العظمة الإلهية من خلال تأمله وتتبعه لتلك النواميس والقوانين التي يسير وفقها هذا الكون وتسير وفقها الشمس وتوابعها ومن ضمن هذه القوانين : الحركة المستمرة لمكونات الكون الفسيح من نجوم وأقمار وكواكب وغير وهذه الحركة في إطار من الإبداع والإحكام الإلهي في غير ما تصادم أو ارتباك أو توقف أو تعطيل .

والحركة هي صفة الكون بوجه عام . على أن لكل وحدة من وحداته حركة خاصة بها فللمجرات حركتها الخاصة وللمجموعات المجرية حركتها الخاصة وللمجموعات النجمية حركتها الخاصة وللنجوم حركتها الخاصة وللكواكب حركاتها الخاصة وللمذنبات حركاتها الخاصة وللمجموعات الشمسية حركاتها الخاصة .

قال تعالى :

﴿وَالسمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْيدٍ وَإِنا لَمُوسِعُونَ﴾ [1] .

وقال تعالى :

﴿فَلا أُقْسِمُ بِالْخُنس الْجَوَارِ الْكُنس﴾ [2] .

وقال تعالى :

﴿خَلَقَ السمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَق يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النهَارِ وَيُكَوِّرُ النهَارَ عَلَى اللَّيْل وَسَخرَ الشمْسَ وَالْقَمَرَ كُل يَجْرِي لأَجَلٍ مُسَمى ألا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفارُ﴾ [3]

وقال تعالى :

﴿وَهُوَ الذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنهَارَ وَالشمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [٤]

والأرض مندرجة تحت قانون الكون الحركي إذ لها حركتها الخاصة أيضاً وهذه الحركة تتنوع إلى حركات متعددة مثل :

(١- حركتها حول نفسها .

٢- حركتها حول الشمس .

٣- حركتها مع الشمس حول المجرة .) [٥]

والذي يعنينا في هذه الدراسة هو "حركة الأرض حول نفسها في القرآن الكريم" والقرآن الكريم لم يصرح بدوران الأرض حول نفسها أو بحركتها بوجه عام وإنما جاء ذلك بطريق الإشارة مراعاة لمقتضى الحال في خفائها وعدم إحساس الناس بها لئلا يؤدي ذلك إلى تكذيب القرآن الكريم والإعراض عن الرسالة النبوية.

لامس القرآن هذه الحقيقة من خلال الإشارة إلى الليل والنهار وإلى تعاقبهما وإلى أطراف النهار كالفجر والصبح والضحى والعصر ووصف الليل بالأدبار والصبح بالإسفار إلى غير ذلك . مما هو مسلم به عند العرب ومعهود في حياتهم المشاهدة .

والمتأمل المتبصر في الآيات الكريمة التي ذكرت الليل والنهار يلاحظ أنهما لم يردا بمعناهما الأصلي وهو الزمني إلا في قليل من آيات القرآن ولكنهما وردا بمعنى لوازمهما من الظلمة والضياء ومكان الحدوث وسببه في آيات كثيرة مع وجود قرينة في كل حالة تدل على المعنى المقصود .

(وتعتبر ظلمة الليل وضياء النهار ومكان حدوثهما والسبب فيهما من لوازم الليل والنهار لأنه لا يعقل ليل أو نار بدون ظلمة أو ضياء ولا بدون مكان حدوث أو بدون سبب.) [٦]

ومكان حدوث الليل والنهار هو الأرض نفسها[٧] وسبب حدوثهما هو حركة الأرض حول نفسها . وإطلاق اللفظ وقصد أحد لوازمه مع وجود قرينه دالة عليه هو أحد أساليب القرآن البلاغية. وهو المجاز المرسل.

واستعمال القرآن الكريم للفظ الليل والنهار استعمالاً مجازياً وقصد أحد لوازمهما يفتح المجال أمام الدارسين والمحققين لاستجلاء معانٍ كبيرة وعظيمة من وراء هذا الأسلوب البلاغي العظيم في تلك الآيات الكريمة ومن ضمن هذه المعاني :

١ - إدراك حركة الأرض اليومية حول نفسها قرآنياً .

٢ - إدراك حركة الأرض السنوية حول الشمس قرآنياً .

٣ - إدراك شكل الأرض وهيئتها . قرآنياً .

٤ - استجلاء الصورة القرآنية لحركة الشمس والقمر والأرض والكواكب والنجوم .

وقبل أن أشرع في استعراض الآيات القرآنية التي تدل على حركة الأرض حول نفسها لابد من تذكير القارئ الكريم بما وصل إليه العلم الحديث وقرره حول هذه الحركة وحركة الشمس والقمر.

يقول العلم الحديث :

(إن الأرض تدور حول نفسها من الغرب إلى الشرق مرة كل ٢٣ ساعة و ٥٦ دقيقة و ٤ ثواني . وتدور حول الشمس في ٣٦٥,٢٦٥ يوماً . وأن القمر يدور حول الأرض مرة كل ٢٧,٣٢ يوماً . ويدور حول نفسه مرة كل ٢٧,٣٢ يوماً . وأن الشمس

تدور حول نفسها كذلك مرة كل ٢٥,٣٨٠ يوماً وتدور حول مركز المجرة مرة كل حوالي ٢٢٥٠٠٠٠٠٠ سنة.) [٨] .

والعلم الحديث يؤكد أن حركة الأرض هذه حول نفسها كانت سريعة في مرحلة التكوين والخلق ثم تباطأت سرعتها تدريجياً حتى استقرت على ما هي عليه الآن وسوف تزيد في التباطؤ حتى يتم انقلاب حركتها بعكس ما هي عليه الآن فتصبح تدور حول نفسها من الشرق إلى الغرب .

يقول العلم الحديث :

(ومن أدلة دوران الأرض حول محورها أمام الشمس تباطؤ سرعة ذلك الدوران باستمرار مع الزمن ويستدل على ذلك بحقيقة أن عدد أيام السنة مدون بدقة بالغة في الهياكل الصلبة للحيوانات وفي أخشاب النباتات فيما يعرف باسم خطوط أو حلقات النمو وتدل دراسة تلك الخطوط أو الحلقات المعبرة عن مراحل النمو في بقايا الكائنات الحية المحفوظة في صخور القشرة الأرضية (الأحافير) على أن عدد أيام السنة في العصر الكمبري (أي منذ ستمائة مليون سنة مضت) كان ٤٢٥ يوماً وفي منتصف العصر الأوردوفيشي (أي منذ حوالي ٤٥٠ مليون سنة) تناقص عدد أيام السنة إلى ٤١٥ يوماً وبنهاية العصر الترایاسي (أي منذ حوالي ٢٠٠ مليون مضت) وصل عدد أيام السنة إلى ٣٨٥ يوماً ثم تناقص ذلك في زماننا الراهن إلى ٣٦٥,٢٥ يوماً والسبب في زيادة عدد أيام السنة في العصور السحيقة من تاريخ الأرض هو الزيادة في سرعة دوران الأرض حول محورها ، والسبب في تناقص عدد أيام السنة مع مرور الزمن هو تناقص سرعة دورات الأرض حول محورها بالتدريج بمعدل ٠,٠٠١ من الثانية في كل قرن من الزمان . وباستخدام ذلك المعدل وصل العلماء إلى أن سرعة دوران الأرض عند بدء الخلق كان أعلى بكثير من معدلاتنا الحالية مما يصل بعدد أيام السنة إلى حوالي (٢١٩١,٥٠) يوماً وبطول اليوم (ليله

ونهاره) إلى أربع ساعات فقط، وباستخدام ذلك المعدل في حسابات مستقبلية وصل العلماء إلى أن تباطؤ سرعة دوران الأرض حول محورها أمام الشمس سوف يستمر إلى أن تتغلب جاذبية الشمس فتعكس اتجاه دورات الأرض الحالي مما يؤدي إلى عكس اتجاه شروق الشمس وغروبها (أي تشرق من الغرب وتغرب من الشرق) [٩]

وبتتبع الآيات الكريمة التي أشارت إلى حركة الأرض حول نفسها من خلال تعاقب الليل والنهار يتضح أن القرآن الكريم قد وصفها بوجه عام بالسباحة ثم أشار إلى كيفية هذه الحركة العامة وأنها على ثلاث كيفيات وأن صفة السباحة ملازمة لكل كيفية منها .

فأما الكيفية الأولى :

فهي كيفية الدوران السريع حول نفسها من الغرب إلى الشرق وقد صاحبت هذه الكيفية مرحلة الخلق والتكوين للأرض.

وأما الكيفية الثانية :

فهي كيفية الدوران البطيء حول نفسها من الشرق إلى الغرب أيضاً وقد صاحبت هذه الكيفية مرحلة التسخير والاستقرار والتذليل للأرض .

وأما الكيفية الثالثة :

فهي كيفية الانقلاب : وهي دوران الأرض حول نفسها بعكس ما كانت علية أي دورانها من الشرق إلى الغرب وحينئذ تطلع الشمس من مغربها .

فأما الإشارة إلى حركة الأرض حول نفسها بوجه عام ووصف هذه الحركة بالسباحة فنلمس ذلك في قوله سبحانه وتعالى :

﴿**وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ**﴾ [١٠] .

أقوال المفسرين حول هذه الآية :

١ - يقول ابن جرير الطبري :

(والله الذي خلق لكم أيها الناس الليل والنهار نعمة منه عليكم وحجة ودلالة على عظيم سلطانه وأن الألوهية له دون كل ما سواه منها .. يختلفان عليكم لصلاح معايشكم وأمور دنياكم وأخرتكم وخلق الشمس والقمر أيضاً كل في فلك يسبحون .

والفلك في كلام العرب كل شيء دائر فتأويل الكلام (والشمس والقمر كل ذلك في فلك دائر يسبحون) وأما قوله يسبحون : فإن معناها يجرون . وأخرج الخبر عن الشمس والقمر مخرج الخبر عن بني آدم بالواو والنون ولم يقل يسبحن أو تسبح كما قيل ﴿**وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ**﴾ لأن السجود من أفعال بني آدم فلما وصفت الشمس والقمر بمثل أفعالهم أجرى الخبر عنهما مجرى الخبر عنهم) [١١].

٢ - ويقول الزمخشري في **تفسيره :**

(كل في فلك يسبحون) كل التنوين فيه عوض عن المضاف إليه أي كلهم في فلك يسبحون . والضمير للشمس والقمر . والمراد بما جنس الطوالع كل يوم وليلة جعلوها متكاثره لتكاثر مطالعها وهو السبب في جمعها بالشموس والأقمار وإلا فالشمس واحدة والقمر واحد) [١٢]

٣ - ويقول الفخر في **تفسيره :**

(كل في فلك يسبحون) أنه لا يجوز أن يقول (كل في فلك يسبحون) إلا ويدخل في الكلام مع الشمس والقمر النجوم ليثبت معنى الجمع ومعنى الكل فصارت النجوم وإن لم تكن مذكورة أولاً فإنا مذكورة لعود هذا الضمير إليها والله أعلم) [١٣]

٤ - ويقول القرطبي في **تفسيره :**

(أي جعل لهم الليل ليسكنوا فيه والنهار ليتصرفوا فيه لمعاشهم وجعل الشمس آية النهار والقمر آية الليل لتعلم الشهور والسنون والحساب (كل) يعني الشمس والقمر

والنجوم والكواكب والليل والنهار (في فلك يسبحون) أي يجـرون ويسـيرون بسـرعة كالسابح في الماء) [١٤].

٥ - ويقول ابن كثير :

(وكل في فلك يسبحون) أي يدورون . قال ابن عباس يدورون كما يدور المغزل في الفلكة) [١٥]

٦ - ويقول أبو السعود في **تفسيره :**

(أي يجرون في سطح الفلك كالسبح في الماء . والمراد بالفلك الجنس كقولـك : كساهم الخليفة حله والجملة حال من الشمس والقمر وجاز انفرادهما بما لعـدم اللـبس والضمير لهما والجمع باعتبار المطالع وجعل الضمير واو العقلاء لأن السباحة حالهم) [١٦]

٧ - ويقول سيد قطب :

(الليل والنهار ظاهرتان كونيتان والشمس والقمر جرمان هائلان لهما علاقة وثيقة بحياة الإنسان في الأرض وبالحياة كلها.) [١٧]

وبالنظر في **أقوال المفسرين هؤلاء يتضح أننا نتلخص** في **الآتي :**

١ - استدارة الفلك وأن الأجرام تسبح فيه .

٢ - ثبوت معنى الجمع ومعنى الكل في الآية بأمرين :

الأول : باعتبار تعدد مطالع الشمس والقمر .

الثاني : تقدير النجوم والسيارات مع الشمس والقمر في السباحة فيكون الضـمير في يسبحون عائد عليها وإن لم تكن مذكورة .

٣ - علل المفسرون وجود الواو والنون في الفعل يسبحون بأنه خـرج مخـرج العقـلاء للمشابهة في أفعالهم . حيث السباحة من أفعال العقلاء .

٤ - انفراد ابن كثير بذكر دوران الشمس والقمر في فلكيهما مورداً ذلك عن ابن عبـاس رضي الله عنهما .

وعلى هذا تكون الصورة الإجمالية لمعنى الآية عند المفسرين :

(أن الليل والنهار أطلقا وأريد بما معناهما الأصلي. وهو المعنى الزمني زمن الليل وزمن النهار دون لوازمهما وأن كلا من الشمس والقمر والنجوم تسبح وتجري في أفلاك مستديرة مع عدم الإشارة إلى حركة الأرض وسباحتها في فلك خاص با وتفسير السبح في الآية بالجري .

وبالنظر في هذه النقاط وهذه الصورة الإجمالية للآية عند المفسرين تبدو لي نقاط تتفق أو تختلف معهم . حول تفسيرها . وهذه النقاط .

١ - المجاز المرسل في ذكر الليل والنهار وما يترتب عليه .

٢ - الجمع في الآية (كل) في حين أن الحديث عن مثنى - الشمس والقمر -

٣ - الفرق بين الفعل سبح والفعل جرى .

٤ - مجيء واو الجمع للعقلاء في قوله (يسبحون) .

وبالمقارنة بين نقاط المفسرين حول الآية والنقاط التي رأيتها. نجد الاتفاق في قضية الجمع مع زيادة معنى عندي سيأتي توضيحه .

كما نجد الاتفاق في قضية واو الجماعة وتنزيله منزلة العقلاء مع زيادة معنى عندي سيأتي توضيحه أيضاً . والاتفاق كذلك . في قضية الفلك وشكله .

وتبقى قضية كل من المجاز المرسل في الليل والنهار والفرق بين معنى الفعل سبح والفعل جرى قضيتان زائدتان على قضايا المفسرين . حيث لم يفطنوا رحمهم الله للمعنى المجازي لليل والنهار في الآية وفسروهما بمعناهما الأصلي وهو الزمني كما أنهم لم يفرقوا بين

معنى الفعل سبح ومعنى الفعل جرى واعتبروهما بمعنى واحد ففسروا سباحة الشمس والقمر بالجري في حين أن لكل من اللفظين معنى مستقلاً عن الآخر . فالسباحة لها معناها الخاص. والجري له معناه الخاص . وعلى ضوء هذه المعاني يتحدد تفسير الآية تحديداً دقيقاً.

وإليك تفصيل هذه النقاط :

(قضية المجاز المرسل في لفظي الليل والنهار)

سبق ذكر ذلك عموماً فيما تقدم . ونلاحظ هنا في هذه الآيـة الكريمـة أن الله سبحانه وتعالى قد أطلقهما وأراد لازماً من لوازمهما مع قرينه دالة على المعنى المقصود .

والمتبادر للذهن من ظاهر الآية أن الليل يسبح في فلك وأن النهار يسبح في فلـك وأن الشمس تسبح في فلك وأن القمر يسبح في فلك . وحينئذ يتحقق معنى الجمع في قوله تعالى (كل) . ولكننا إذا نظرنا إلى أصل معنى الليل والنهار الذي هو (الزمن) علمنا أنه لا يعقل فيه السبح لأنه ظاهرة غير مادية . وأن الجمع لا يتحقق بمجرد ذكر الشمس والقمر لأنهما مثنى ولهذا لابد من البحث عن لازم مادي من لوازم الليل والنهار يعقل فيه السـبح ويتحقق به معنى الجمع . ولازم كل منهما هو مكان حدوثهما وهو الأرض حيث يقـع عليها كل من الليل والنهار ويتعاقبان عليها. وسبب حدوث النهار هو الشمس وسـبب حدوث الليل هو الأرض لأن جزءها المقابل للشمس يحجب الضوء عن الجزء الآخر فيكون ليلاً. وقس على هذا بقية الأجرام السماوية الأخرى من نجوم وكواكب . فالنجوم هـي سبب الضياء أي أنها سبب النهار والأرضين هي سبب الظلمة أي أنها سبب الليل . وعلى هذا يكون الليل والنهار في الآية قد استعملا استعمالاً مجازياً وقصد بهما لازماً من لوازمهما يعقل فيه السبح ويتحقق به معنى الكل في قوله تعالى (كل في فلك يسبحون) وهذا اللازم هو مكان الحدوث[١٨] .

فيكون تأويل الآية على هذا الاعتبار : (وهو الذي خلق مكان الليل ومكان النهار والشمس والقمر كل في فلك يسبحون).

وحيث إن مكان حدوث الليل والنهار هو الأرض فيكون التأويل : (وهو الـذي خلق الأرض والشمس والقمر كل في فلك يسبحون) .

وحيث إن المعروف في الليل والنهار تعاقبهما على مكان حدوثهما وهو الأرض . وحيث إن الليل والنهار زمنان لا تعقل فيهما الحركة التي ينتج عنها تعاقبهما كان لزامـاً لتعاقبهما أن يتحرك مكانهما (وهو الأرض). فتكون الأرض بهذا متحركة سابحة شأنها في ذلك شأن الشمس والقمر الذي صرحت الآية بحركتهما وسباحتهما في أفـلاك محـددة تكون هذه الحركة هي سبب تعاقب الليل والنهار .

وأما قرينة هذا المجاز في الليل والنهار فهو قوله تعالى ﴿**كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْـبَحُونَ**﴾ حيث لا يعقل السبح في الزمن وإنما يعقل في الأجسام المادية ومنها الأرض[19] .

ونتيجة لغياب هذا المعنى المجازي لليل والنهار عند المفسرين اختفى جزء من المعنى ولم تظهر الصورة الحقيقية للآية لغياب الإشارة إلى الأرض عندهم . في حين أنها جزء من الصورة القرآنية . والقرآن الكريم حينما استعاض عن ذكر الأرض صراحة بـذكر الليـل والنهار إنما كان ذلك سيراً على منهجه في مراعاة مفاهيم البشر وقت التنزيـل حيـث لم يصدمهم بذكر شيء لا يعرفونه ولكي لا يصدمهم بنقيض البدهي عندهم وما اسـتقر في نفوسهم فيؤدي ذلك إلى تكذيب القرآن إذ لم يكونوا يعرفون أن للأرض حركـة حـول نفسها وإنما يعرفون ما يشاهدونه ويحسونه من حركة الشمس والقمر ولـذلك ذكرهمـا صراحة وجاء بالليل والنهار مجازاً وأراد لازمهما وهو الأرض مراعاة لمقتضى الحال . وهذا هو أسلوب القرآن في الآيات الكونية . يأتي بها بألفاظ لا يتحير العرب في فهمها والأخذ

منها . بداهة . وهي تحتوي وتتضمن من البلاغة والإعجاز ما يفيض بالمعاني الجمة الأخرى غير ما يفهم عن طريق البداهة . والعرب لا يجدون حيرة في قبول الإشارة إلى تعاقب الليل والنهار حيث هما ظاهرتان تختلفان كل يوم عليهم ويعرفونهما وهاتـان الظاهرتـان مـن مشاهداتهم اليومية المحسة . فلا يؤدي ذلك إلى إنكار هذه الصورة. ولكن ذكـر الأرض صراحة وأنها تتحرك وتدور كما تتحرك الشمس ويتحرك القمر وهو شيء غير معهـود عندهم قد يؤدي ذلك إلى تكذيب القرآن وعدم الإيمان به . وهكذا تناسب آيات القرآن الماضي والحاضر والمستقبل .

(قضية الجمع في الآية)

ذكر الله في هذه الآية جسمين ماديين هما الشمس والقمر صراحة . وأعاد عليهما ضمير الجمع في قوله ﴿**كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ**﴾ . والقياس أن يقول (كل منهما في فلـك يسبح) أو كلاهما في فلكين يسبحان . وعودة ضمير الجمع في الآية على أثنين مـذكورين فيها جعل العلماء يقدرون محذوفاً يستقيم به المعنى ويتحقق به الجمع وهذا المحذوف هـو (النجوم) ويكون تأويل الآية على هذا (وهو الذي خلق الليل والنهار والشمس والقمـر والنجوم كل في فلك يسبحون) . والمفسرون رحمهم الله حينما لجأوا إلى تقدير محذوف مع وجود الليل والنهار والشمس والقمر إنما كان ذلك إدراكاً منهم باستحالة سباحة الليـل والنهار كسباحة الشمس والقمر لأن الليل والنهار ظاهرتان زمنيتان معنويتـان لا يعقـل فيهما السبح. ولا يتحقق بذكرهما مع الجسمين الماديين الشمس والقمر لا السـباحة ولا الجمع . في حين تتحقق السباحة والجمع بإضافة أجسام مادية أخرى . وهذا يؤيـد مـا ذهبت إليه من ضرورة قصد لازم الليل والنهار وهو مكان الحدوث الذي هو الأرض .

وأرى أن المفسرين رحمهم الله قد فاتهم أمران وفواتهما ألجأ المفسرين إلى تقدير محذوف فيها هو النجوم ولو تنبهوا لهما لما قدروا هذا المحذوف .

أما الأمر الأول :

فهو عدم التنبه للمعنى اللازي لليل والنهار وعدم التنبه لهذا جعلهم يفسرونهما بمعناها الأصلي وهو الزمني .

وإذا فسرنا الليل والنهار على أنهما أطلقا وأريد لازماً من لوازمهما وهو مكان الحدوث الذي هو الأرض استقام المعنى في السباحة وتحقق الجمع في الآية ولا نحتاج إلى تقدير محذوف يعقل فيه السبح ويتحقق به الجمع كما فعل المفسرون ، حيث تظهر الصورة واضحة وجلية حينما يكون تأويل الآية (وهو الذي خلق الأرض والشمس والقمر كل في فلك يسبحون).

ويظهر لنا من خلال هذا التفسير معنى جديدٍ مهمٍ للغاية وهو اليقين بأن للأرض حركة مشابهة لحركة الشمس والقمر وأنها ليست ثابتة لا حركة لها كما توهم ويتوهم بعض الناس .

وإذا كانت للشمس حركة حول نفسها - كما قرره العلم الحديث - والقمر كذلك له حركة حول نفسه وحول الأرض . فإن الأرض هي الأخرى لها حركة حول نفسها ينتج عنها تعاقب الليل والنهار لأنها سبب ذلك ومكانه .

وأما الأمر الثاني :

فهو عدم تفسير الشمس والقمر في الآية بالجنس أي جنس الشمس وجنس القمر ولهذا لجأوا لتقدير محذوف يتحقق به الجمع ويعقل فيه السبح هو النجوم وأعتقد أنه لا داعي لذلك إذ الأولى أن يقال إن المقصود بالشمس والقمر جنس الشمس وجنس القمر خصوصاً إذا علمنا أن جميع النجوم هي شموس وما شمسنا هذه التي نشاهدها إلا نجم متوسط الحجم فهي رمز لبقية نجوم الكون وكذلك القمر هو في حقيقة أمره كوكب

والكون مليء بالأقمار الشبيهة بقمرنا هذا . وإذا علمنا أن الأولى تفسير الشمس والقمر في الآية بالجنس وعلمنا كما تقرر أن الأرض مقصودة في الآية من خلال الإشارة إلى الليل والنهار . فسرنا الأرض كذلك بجنس الأرض لأن الكون مليء أيضاً بالأرضين كما هو مليء بالنجوم والأقمار ويكون تفسير الآية على هذا : (وهو الذي خلق الأرضين والشموس والأقمار كل في فلك يسبحون) وبذا التفسير يتحقق مطلق الجمع في الآية . وتظهر من خلاله الصورة القرآنية للكون التي هي عبارة عن حشود هائلة من الأجرام شموس (نجوم) وأرضين وكواكب وأقمار وخلافه تسبح وتتحرك في هذا الكون العظيم وفي أفلاك محددة . في غير ما تصادم أو خلل مصداقاً لقوله تعالى : ﴿**كُلٌ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ**﴾. وقد خص الله الشمس والقمر في الآية بالذكر دون سائر الأجرام الأخرى لتعهد ذلك عند الناس وبداهته لهم .

الفرق بين الفعل سبح والفعل جرى

فسر العلماء الفعل سبح في قوله : ﴿**كُلٌ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ**﴾ بالجري وهذا يعني أن السباحة هي نفس الجري وقد لفت هذا التفسير انتباهي ونظري إذ وجدت القرآن الكريم يصف حركة الشمس والقمر مرة بالسباحة كما في قوله تعالى :

﴿**وَهُوَ الذِي خَلَقَ الليْلَ وَالنهَارَ وَالشمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ**﴾[٢٠] .

ومرة بالجري كما في قوله تعالى :

﴿**اللهُ الذِي رَفَعَ السمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُم اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ وَسَخرَ الشمسَ وَالْقَمَرَ كُلٌ يَجْرِي لأَجَلٍ مُسَمى يُدَبرُ الأَمْرَ يُفَصلُ الآيَاتِ لَعَلكُمْ بِلِقَاءِ رَبكُمْ تُوقِنُونَ**﴾[٢١] .

وكما في قوله تعالى :

﴿خَلَقَ السمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَق يُكَوِرُ اللَيْلَ عَلَى النهَارِ وَيُكَوِرُ النهَارَ عَلَى اللَيْلِ وَسَخرَ الشمْسَ وَالْقَمَرَ كُل يَجْرِي لأَجَلٍ مُسَمى ألا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفارُ﴾[٢٢].

واعتقدت من خلال وصف القرآن هذا لحركة هذه الأجرام بذين اللفظين أن ثمة فرقاً بينهما في المعنى فتلمست ذلك وتحسسته في كتب اللغة ووقفت على أسرار بديعة ومعانٍ دقيقة لكل من الفعلين جرى وسبح يتوقف على فهمهما المعنى الدقيق لكل آية وتظهر الصورة الحقيقية لها في ثوب من الإعجاز والإبداع.

أقوال علماء اللغة في الفعل (سبح)

يقول الراغب الأصبهاني :

(سبح : السبح هو المرّ السريع في الماء وفي الهواء . واستعير لمر النجوم في الفلك نحو ﴿**وَكُل فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ**﴾ . ولجري الفرس عندما يحرك رجليه في الهواء ولسرعة الذهاب في العمل نحو ﴿**إن لَكَ فِي النهَارِ سَبْحًا طَوِيلا**﴾ [المزمل : ٧] والتسبيح تنزيه الله تعالى وأصله المر السريع في عبادة الله تعالى.) [٢٣]

ويقول الزمخشري :

(ومن المجاز فرس سابح وسبوح وخيل سابح وسُبّح والنجوم تسبح في الفلك ونجوم سوابح . وسبح ذكرك مسابح الشمس والقمر وفلان يسبح النهار كله في طلب العيش) [٢٤]

ويقول الفيروز أبادي :

(السبح هو العوم سبح بالنهر وفيه سبحا وسباحة وقوله تعالى : ﴿**والسابحات**﴾ قيل هي السفن وقيل أرواح المؤمنين وقيل هي النجوم . استعير لسرعة الذهاب في العمل كقوله تعالى : ﴿**إن لَكَ فِي النهَارِ سَبْحًا طَوِيلا**﴾)[٢٥] .

ويظهر من أقوال العلماء هذه أن السبح لغة أصل معناه . (الانتقال السريع بحركة ذاتية في الماء أو الهواء . مثل سبح الإنسان بتحريك يديه ورجليه والحيوان بتحريك أرجله. والسمك بتحريك ذيله وزعانفه ومثل سبح الطير في الهواء بتحريك أجنحته.

واستعمل السبح مجازاً : للانتقال السريع للإنسان أثناء المشي وللفرس في الهواء . وهذا الانتقال السريع إنما يحصل بحركة ذاتية من بعض الأعضاء في الإنسان أو الفرس كما استعمل السبح مجازاً في انتقال النجوم والكواكب السريع.

وبالإجمالي : فالسبح هو الانتقال السريع للجسم بحركة ذاتية فيه .

وقد استعمل السبح في **القرآن الكريم** مجازاً في **أحوال ثلاثة هي:**

١ - في ذهاب الرسول إلى العمل بسرعة في النهار كما قال الراغب الأصبهاني في سورة المزمل في قوله تعالى : ﴿**إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا**﴾ وذلك أن حركة الإنسان في أعماله اليومية إنما تتم بحركة ذاتية منه . فأشبهت الحركة الذاتية للسابح في الماء .

٢ - وفي نزول الملائكة في سورة النازعات في قوله تعالى : ﴿**وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا**﴾ حيث تتحرك الملائكة حركة ذاتية بتحريك أجنحتها في الهواء. فأشبهت السابح في الماء الذي يسبح بحركة ذاتية منه بتحريك يديه ورجليه.

٣ - وفي حركة الأجرام كما في قوله تعالى : ﴿**كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ**﴾[٢٦] إذ تتحرك هذه الجرام بحركة ذاتية فيها فأشبهت السابح في الماء الذي يتحرك فيه بحركة ذاتية فيكون تعالى قد قصر استعمال السبح على الانتقال السريع المصحوب بحركة ذاتية كما هو مستعمل في اللغة .

أقوال علماء اللغة في الفعل (جرى)

يقول الراغب الأصبهاني :

(جرى : الجري المر السريع وأصله كمر الماء . وماء يجري يجريه يقال جرى يجري جرية وجَرْياً وجَرَياناً قال عز وجل: ﴿**وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي**﴾ وقال : ﴿**وَلِتَجْرِيَ الْفُلْكُ**﴾ وقال : ﴿**فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ**﴾)[٢٧] .

وقال ابن منظور :

(جرى الماء والدم ونحوه جرياً وجَرْية وجَرَياناً) [٢٨].

وقال الزمخشري :

(والشمس تجري والريح تجري وجرت الخيل وأجروا الخيل وجاراه في كذا مجاراة وتجاروا) [٢٩] .

والملاحظ أن القرآن الكريم قد استعمل هذا الفعل (تجري ويجري) في غير ما موضع منه لوصف حركة كل من :

١ - الشمس والقمر .
٢ - الخنس .
٣ - الأنار .
٤ - الريح .
٥ - العيون .
٦ - السفن والفُلْك .

وذلك على النحو التالي :

١ - حركة الشمس والقمر :

قال تعالى :

﴿اللهُ الذِي رَفَعَ السـمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُم اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ وَسَخرَ الشمْسَ وَالْقَمَرَ كُل يَجْرِي لأجَـلٍ مُسَمى يُدَبرُ الأَمْرَ يُفَصـلُ الآيَاتِ لَعَلكُمْ بِلِقَـاءِ رَبكُـمْ تُوقِنُونَ﴾ [٣٠]

٢ - حركة الخنس :

قال تعالى : ﴿**فَلا أُقْسِمُ بِالْخُنس الْجَوَارِ الْكُنس**﴾[٣١] .

٣ - حركة الأنار :

قال تعالى : ﴿**أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي**﴾[٣٢] .

٤ - حركة الريح :

قال تعالى : ﴿**فَسَخَّرْنَا لَهُ الريحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ**﴾[٣٣] .

وقال تعالى: ﴿**وَلِسُلَيْمَانَ الريحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الأَرْض الَتِي بَارَكْنَـا فِيهَا وَكُنا بِكُل شَيْءٍ عَالِمِينَ**﴾[٣٤] .

٥ - حركة العيون :

قال تعالى : ﴿**فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ**﴾[٣٥].

وقال تعالى : ﴿**فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ**﴾[٣٦].

٦ - حركة الفلك والسفن :

وردت آيات متعددة في وصف حركة الفلك بالجري في القرآن الكريم .

من ذلك قوله تعالى : ﴿**وَالْفُلْكِ الَتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ الناسَ**﴾[٣٧] .

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿**وَسَخرَ لَكُمْ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ**﴾[٣٨] .

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿**أَلَمْ تَرَ أن الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمتِ اللهِ**﴾[٣٩] .

وإذا تأملنا في حقيقة جري هذه الأشياء التي تناولتها الآيات وهي الفلك - السفن الشراعية - والماء سواءً كان أناراً أم عيوناً . والريح . وجدنا أنا جميعاً تتحرك بمؤثرات خارجية وليست بحركة ذاتية ، فالفلك وهي السفن الشراعية لا تتحرك تلقائياً من ذوات أنفسها ولو كان لها حركة ذاتية لصح أن تسمى سباحة وليست جرياً لأنا في الماء قياساً

على سباحة الإنسان في الماء لأنه يتحرك بحركة ذاتية منه فيحرك يديه ورجليه ويعوم تلقائياً.

ولكن لما كانت حركة السفن الشراعية بواسطة الدفع الخارجي للرياح وبواسطة دفع المجاديف لها صح أن تسمى هذه الحركة جرياً وليس سباحة . ولم نر القرآن وصفها بالسباحة أبداً برغم ما يتبادر للذهن من أن السفن الشراعية تسبح في الماء .

وحركة الماء أيضاً سواء كان أنهاراً أم عيوناً لا تتم تلقائياً من الماء نفسه بل تتم بواسطة مؤثر خارجي لأن الماء إذا كان على سطح مستو فإنه يبقى راكداً غير متحرك أما إذا مال الوعاء الذي يحويه فإنه ينساب ويجري بسبب الميول نفسه وليس بسبب ذاتي منه.

والأنهار والعيون إنما تجري لوجود انخفاض نسبي عن مستوى تخزينها يجعلها تنساب جارية نحو المستوى النازل . فيتضح لنا جليا أن الماء لا يتحرك من ذات نفسه بل لابد من مؤثر فيه كي يتحرك .

وحركة المياه في البحار هي الأخرى ليست ذاتية وإنما ذلك راجع إلى مؤثرات وعوامل من ضمنها الرياح . فأشبهت حركة المياه حركة السفن الشراعية في افتقارها إلى مؤثر خارجي يدفعها ويحركها ولما كان الأمر كذلك صح وصف حركتها بالجري .

والريح هي الأخرى لا تتحرك تلقائياً من ذات نفسها بل لابد من مؤثر خارجي وعوامل طبيعية تجعلها تتحرك من مكان إلى مكان . وحركة الرياح والعوامل المؤثرة فيها معلومة ومعروفة لدى أهل الاختصاص . ولما كانت حركتها كذلك صح وصفها هي الأخرى بالجري .

وحركة الشمس والقمر أيضاً نحو الأجل المسمى إنما تحصل بفعل مؤثر خارجي وليس بفعل مؤثر ذاتي . ولما كانت كذلك صح أن توصف بالجري وليس بالسباحة .

ومما تقدم يتضح أن جري الشمس والقمر والريح والسفن الشراعية والماء ما هـو إلاّ حركة انتقال كلي لكل منها سواء بالدفع أو بالسحب أو الجذب أو غير ذلـك دون حدوث حركة ذاتية فيها .

ونخلص من معنى السبح والجري إلى :

(أن الجري قد استعمل في اللغة بمعنى الانتقال السريع بحركة ذاتيـة أو بـدونها . ولكنه استعمل في القرآن الكريم بمعنى الانتقال السريع بدون حركة ذاتية فقط .

وأن السبح استعمل في اللغة والقرآن بمعنى واحد هو الانتقال السريع المصـحوب بحركة ذاتية في الجسم السابح .

فيفهم من خلال هذا أن جري الشمس والقمر والأجرام الأخرى غير سبحها على حسب استعمال القرآن الكريم . وهذه النتيجة لها أهميتها العظمى في توجيه آيات الجـري والسباحة.) [٤٠]

وقد تقدم أن المفسرين رحمهم الله فسروا السـباحة بمعنى الجري في قوله تعالى : ﴿**كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ**﴾ وفحواه أن كلاً من الشمس والقمر يجريان في فلكيهما . وهم بهذا التفسير للجري والسباحة يعتبرون الجري هو نفس السبح في الفلك المذكور .

والمفسرون (رحمهم الله) اعتمدوا في هذا على أن الجري يستعمل للسبح أو هـو مرادف له في اللغة ويبدو لي أن المفسرين رحمهم الله قد جانبهم الصواب في هذا التفسـير وذلك للسببين الآتيين :

١ - أننا نعلم عظمة القرآن في أسلوبه وبلاغته ومن ضمن بلاغته الإيجاز الجامع وهذه البلاغة تقتضي الاّ يستعمل لفظي الجري والسباحة لحركة واحدة في كل من الشمس والقمر .

٢ - أنه ظهر لنا مما تقدم أنه تعالى قد قصر استعمال الجري على الانتقال السريع دون حركة ذاتية كما رأينا في حركة الريح والفلك والماء . وهذا ما غفل عنه المفسرون . في حين استعمل السبح للانتقال السريع مع حركة ذاتية كالاستعمال اللغوي .

وبناء على هذا أرى أن الآيات التي ذكرت جري الشمس والقمر لأجل مسمى القصد منها حركة انتقال كلي لكل منهما إلى ذلك الأجل المسمى . وأن هذا الانتقال هو انتقال سريع بدون حركة ذاتية في كل منهما وإنما الذي يؤثر عليهما ويدفعهما إلى ذلك ويحركهما نحو أجلهما المسمى هو مؤثر خارجي عنهما . قد يكون قوة جذب مركز المجرة وقد يكون مؤثر آخر الله به عليم .

وكما قرر العلم الحديث فإن توابع الشمس التي تعتبر الأرض واحداً منها تجري مع الشمس إلى أجلها المسمى فإن الأرض بناءاً على هذا تجري مع الشمس والقمر وبقية التوابع إلى الأجل المسمى . وتكون حركة الشمس هذه وتوابعها الموصوفة بالجري مختلفة تماماً عن حركتها الموصوفة بالسباحة حيث حركة الجري تعتبر الانتقال السريع في الكون الواسع إلى الأجل المسمى بدون حركة ذاتية .أما حركة السباحة فهي الانتقال السريع في الفلك بحركة ذاتية في الجسم السابح .

وحيث أن حركة الشمس والقمر وجميع توابع الشمس ومنها الأرض حول نفسها هي الحركة الممكنة فيها لأنه لا يعقل لجسم كروي أن يحدث حركة ذاتية بغير الالتفاف حول نفسه . فتكون إذا حركة الشمس الذاتية مع توابعها الموسومة بالسبح (وهي تسبح في أفلاكها) هي التفافها حول نفسها . وبذا يثبت لنا قرآنياً حركة الشمس والقمر والأرض حول أنفسها ومحاورها .

وقد قرر العلم الحديث (كما تقدم) حركة الشمس حول نفسها وحول المجرة وقرر كذلك حركة القمر حول نفسه وحول الأرض وقرر كذلك حركة الأرض حول نفسها وحول الشمس .

وبذا نرى موافقة العلم الحديث لما جاء في القرآن من إشارات حول دوران الشمس والأرض والقمر حول أنفسها . وذلك بإشارته إلى سبح هذه الأجرام في أفلاك محددة . ورأينا كيف استنبطنا هذه الحركة من القرآن من خلال استجلاء معنى كل من الفعلين جرى وسبح .

وبذا التوضيح نصل إلى استكشاف الصورة القرآنية عن حركة هذه الأجرام سواء كانت جرياً أم سباحة . ونعلم أن لها حركتين دائمتين ثابتتين إحداهما الجري في هذا الفضاء الفسيح إلى الأجل المعلوم وأخراهما السباحة في أفلاكها حول محاورها ولكل من هاتين الحركتين خصائصهما ودقائقهما ودورهما على الحياة والأحياء .

فسبحان الذي أتقن وأبدع وأوجد هذا الكون ولفت الأنظار إلى عجائبه وخصائصه وله الحمد على الإيمان والإسلام .

مجيء واو العقلاء في **الفعل (يسبحون)** في **قوله تعالى : ﴿كُلٌ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾**

يقول المفسرون :

أنه أجرى الخبر عنهما مجرى الخبر عن العقلاء لأنه لما كانت السباحة من أفعـال الآدميين جاء ما أسند إليهما مجموعاً جمع من يعقل[٤١] لقوله تعالى : ﴿**وَالشمْسَ وَالْقَمَـرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ**﴾[٤٢] .

قلت :

وجه الشبه بين حال العقلاء وحال هذه الأجرام أن العقلاء ينتقلون نتيجة الحركة الذاتية وليس نتيجة مؤثر آخر يحركهم وهذه الأجرام هي الأخرى تتحرك حول محاورها . بحركة ذاتية دون مؤثر أخر يحركها تشبه حركة العقلاء الذاتية في عدم افتقارها إلى مؤثر آخر . فناسب أن يخرج الخبر عنها مخرج العقلاء للاشتراك في ذاتية الحركة . وهذه الذاتية هي التي عبر عنها القرآن بلفظ السباحة وليس بلفظ الجري .

ومن خلال هذا الاستعراض لهذه الآية الكريمة . والاستئناس بأقوال المفسرين والعلم الحديث .

يتضح جلياً أن حركة الأرض حول نفسها في القرآن قد وصـفت بالسـباحة . وليس بالجري .

وإذا تلمسنا كيفية هذه السباحة في آيات القرآن الكريم وجدناها على ثلاث كيفيات أو هيئات وكل هيئة وكيفية مرتبطة بمرحلة من مراحل الأرض وهذه الكيفيات والهيئات على النحو التالي :

أولاً : حركة الدوران السريع حول نفسها وهذه الكيفية مرتبطة بمرحلة الخلق والتكوين .

ثانياً : حركة الدوران البطيء حول نفسها وهذه الكيفية مرتبطـة بمرحلـة الاسـتقرار والتسخير والتذليل .

ثالثاً : حركة الانقلاب وهذه الكيفية مرتبطة بمرحلة تحول حركة الأرض من الغرب إلى الشرق إلى عكس ذلك أي من الشرق إلى الغرب .

فأما حركة الدوران السريع حول نفسها :

فقد صاحبت خلق الأرض وتكوينها حتى استقرت على هيئتها الراهنة . بمعنى أن الأرض كانت في زمن تكوينها الأول تدور حول نفسها من الغرب إلى الشرق بسرعة أكثر مما هي عليه الآن . وقد وصف القرآن الكريم هذه الحركة السريعة بأنها (حثيثة) وذلك بإشارته إلى تعاقب الليل والنهار تعاقباً حثيثاً وذلك بقوله تعالى :

﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَـرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾[٤٣] .

كما وصف القرآن حركة الأرض هذه في هذه المرحلة وحركتـها في المرحلـة الأخرى اللاحقة لها وهي مرحلة الدوران البطيء وصفها (بالسباحة) بمعـنى أن السـباحة

صفة ملازمة لحركة الأرض حول نفسها في المرحلتين حيث قال تعالى : **﴿وَهُوَ الذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنهَارَ وَالشمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾** كما تقدم .

ونستعرض الآن الآية الكريمة التي يفهم من خلالها دوران الأرض السريع في بداية التكوين والخلق وهي قوله تعالى : **﴿إِن رَبكُمْ اللهُ الذِي خَلَقَ السمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتةِ أَيامٍ ثُم اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنجُومَ مُسَخرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ تَبَارَكَ اللهُ رَب الْعَالَمِينَ﴾**

الحث لغةً : هو الإعجال في **اتصال**[٤٤]

يقول الطبري في **تفسيره :**

أي يورد الليل على النهار فيلبسه إياه حتى يذهب نضرته ونوره . (يطلبه) أي يطلب الليل النهار . (حثيثاً) أي سريعاً[٤٥] .

ويقول الفخر الرازي في **تفسيره :**

(يغشي الليل النهار) يحتمل أن يكون المراد يلحق الليل بالنهار وأن يكون المراد النهار بالليل واللفظ يحتملهما معاً وليس فيه تغيير . ويقول : (وصف الله هذه الحركة بالسرعة والشدة وذلك هو الحق لأن تعاقب الليل والنهار إنما يحصل بحركة الفلك الأعظم. وتلك الحركة أشد الحركات سرعة وأكملها شدةً)[٤٦] .

والعلماء رحمهم الله تعالى في إعراب قوله تعالى : **﴿وَالشمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنجُومَ مُسَخرَاتٍ بِأَمْرِهِ﴾** [الأعراف : ٥٤] على رأيين :

الرأي الأول : العطف : أي عطف الشمس والقمر على السماوات ويكون المعنى على هذا : (وخلق الشمس والقمر والنجوم حال كونا مسخرات) . ، وهو رأي الأخفش .

الرأي الثاني : الرفع : ويكون المعنى على هذا . الإخبار عن الشمس والقمر والنجـ ـوم بالتسخير[٤٧] .

وجملة أقوال المفسرين القدامى رحمهم الله حول قوله تعالى: ﴿**يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا**﴾ هي : تغطية الليل النهار وتغطية النهار الليل . أو يلحق الليل النهار ويلحـق النهار الليل ولم تذكر الآية إغشاء النهار لليل إكتفاءاً بأحد الأمرين عن الآخـر كقوله تعالى : ﴿**سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ**﴾[٤٨] وذلك لاحتمال اللفظ لهما . وفسروا : حثيثاً : بالسرعة في طلب أحدهما الآخر وتعاقبهما دونما فاصل وخلاصة التفسير لهذا الجزء من الآية عندهم أنه تعالى يغطي أو يلحق كلاً من الليل والنهار بالآخر بسرعة مع التعاقب على الأرض .

وقبل الحديث عن الآية أذكر القارئ الكريم . بما سبق أن ذكرته حـول إطـلاق القرآن للفظي الليل والنهار وإرادة لوازمهما . في كثير من آياته مع وجود قرينة دالة على ذلك . ففي هذه الآية أطلق القرآن الكريم الليل والنهار وذكر إغشاء كلاً منهما للآخـر. وأراد ظلمة الليل وضياء النهار ومكان الحدوث . وسببه . التي هي من لوازم الليل والنهار.

(وحيث إنه لا معنى لتغطية زمن بزمن فيكون معنى الآية المقصود . يغطي بظلمـة الليل مكان النهار على الأرض فيصير ليلاً ويغطي بضياء النهار مكان الليل فيصـير نـاراً والقرينة على هذا القصد قوله (يغشي) أي يغطي لأن الإغشاء يقتضي تغطية شيء بشيء، والأول مكان النهار ثم مكان الليل والثاني هو ظلمة الليل ثم ضياء النهار) [٤٩] .

وحيث إن مكان حدوث ظلمة الليل وضياء النهار هو الأرض فلا يعقل وجـود ليل ونار بدون أرض يقعان عليها ويشاهدان عليها . ويحس تعاقبهما عليهـا . وسـبب تعاقبهما وغشيان أحدهما الآخر هو مكان حدوثهما وهو الأرض . ولا يعقـل تعاقـب وغشيان أحدهما الآخر مع ثبات مكانهما لأنه يلزم من ثبات مكانهما ثبات كل من الليـل

والنهار على الأرض في وقت واحد وانتفاء غشيانهما لبعضهما فيتضح من ذلك أن المقصود من ذكر غشيان الليل للنهار هو الإشارة إلى حركة الأرض حول نفسها وهـذه الحركـة حركة سريعة جداً لوصفها بالحث . وهذا المعنى هو الذي فات المفسرين رحمهم الله تعالى ولهم في ذلك العذر فإن حركة الأرض وخصائصها لم تكن معلومة كما هي الآن .

والرازي رحمه الله قد تنبه إلى أن هناك سبباً مادياً وراء حدوث الليـل والنـهار وسرعة تعاقبهما الاّ أنه لم يصب حينما قال (إن تعاقب الليل والنهار إنما يحصـل بحركـة الفلك الأعظم) وليته قال (إنما يحصل بحركة الأرض حول نفسها) والقـرآن الكـريم لم يصرح بحركة الأرض حول نفسها كما هو شأنه في مثل هذه الأمور لأن التصريح بـذلك يصادم ما هو معهود ومستقر عند الناس في زمن التنزيل من ثبات الأرض وعدم حركتها .

والملاحظ أن القرآن الكريم لم يستعمل هذه الكلمة (حثيثاً) في وصف تعاقب الليل والنهار الاّ في هذه الآية . وفي هذا الموضع . برغم تكرر الإشارة إلى تعاقبهما واختلافهما وغشيان بعضهما الآخر في مواضع متعددة من القرآن الكريم . وذلك للإشارة إلى هذا المعنى الدقيق (دوران الأرض حول نفسها بسرعة) وللإشارة كذلك إلى هذه المرحلة من المراحل التي مرت بها الأرض مرحلة الخلق والتكوين وكأن القرآن الكريم في هذه الآية يحكي حقيقة تاريخية من حقب خلق الأرض ويصف لنا هيئة حركة الأرض في تلك الحقبة من الزمن .

والملاحظ كذلك أن القرآن الكريم قد وصف غشيان الليل للنهار في هذه الآيـة بالحث في معرض حديثه عن خلق السماوات والأرض وليس في معرض حديثه عن تسخير السماوات والأرض .

وهناك فرق واضح بين الخلق والتسخير .

إذ الخلق هو : إبداع الشيء من غير أصل ولا إحتذاء[٥٠].

وأما التسخير فهو : سياقة إلى الغرض المختص قهراً[٥١]. والمسخّر : هو : كل مقهور مدّبر لا يملك لنفسه ما يخلصه من القهر[٥٢].

فيتضح أن التسخير مختلف عن الخلق في المعنى والرتبة . وكما هو واضح من التعريف فإن الخلق يعني الابتداء في الإيجاد والمرور بمراحل التكوين . وأما التسخير فهو مرحلة لاحقة للخلق تعني ثبات الموجود واستقراره على هيئة واحدة وحالة معينة .

ونلاحظ في هذه الآية أيضاً أن المولى سبحانه وتعالى لم يذكر أن الليل والنهار مسخران ولم يذكر أن الأرض مسخرة أيضاً . في حين ذكر أن الشمس والقمر والنجوم مسخرات . وذلك لأن الأرض في هذه المرحلة مرحلة التكوين والخلق لم تكن مسخرة أي لم تكن صالحة للحياة وذلك لسرعة حركتها حول نفسها وبالتالي سرعة تعاقب الليل والنهار عليها . أما الشمس والقمر وبقية النجوم فقد صرحت الآية بأنا مسخرة وذلك يعني اكتمال هيئتها وحركتها . وسخرت تسخيراً خاصاً با غير تسخيرها لما يحقق مصالح البشر إذ مصالح البشر مرتبطة أولاً بتسخير الأرض وتيئتها للحياة . فإذا سخرت وتيأت واستقرت انسجمت مع تسخير الشمس والقمر والنجوم العام القائم بالفعل وذلك ما تحقق لاحقاً مصداقاً لقوله تعالى : ﴿**وَسَخَرَ لَكُمْ اللَيْلَ وَالنهَارَ وَالشمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنجُومُ مُسَخرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِن فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ**﴾[٥٣] .

وإذا علمنا هنا أن الليل والنهار في هذه الآية أطلقا وأريد لازماً من لوازمهما وهو مكان الحدوث . كان التقدير (وسخر لكم الأرض والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون)

وما ذكره المفسرون حول معنى (حثيثاً) في الآية بمعنى سريعاً يتفق تماماً مع ما توصل إليه العلم الحديث حول حركة الأرض حول نفسها في مرحلة الخلق والتكوين . من أنا كانت سريعة . وأنا تباطأت تدريجياً حتى استقرت على ما هي عليه الآن وسوف تزيد

في التباطؤ حتى يتم انقلاب حركتها بعكس ما هي عليه الآن فتصبح تدور حول نفسها من الشرق إلى الغرب .

وهكذا نرى أن ما قرره العلم الحديث . حول حركة الأرض حول نفسها في بداية الخلق والتكوين وكيفية تلك الحركة وصفتها . يتفق تماماً مع معطيات الآية الكريمة . حول تلك الحركة وتلك الكيفية والصفة .

وهكذا نرى موافقة العلم الحديث في حقائقه مع القرآن الكريم الذي أشـار إلى هذه الحقائق المكتشفة حديثاً قبل ١٤ قرناً من الزمان . وصدق الله العظيم القائل ﴿**سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ**﴾[٥٤] .

وأما حركة الدوران البطيء حول نفسها من الغرب إلى الشرق:

فهي المرحلة الأقل سرعة من مرحلة الخلق والتكوين . وقد صاحبت هذه الكيفية مرحلة استقرار الأرض وتسخيرها وتذليلها وهذه المرحلة هي المرحلة التي استقرت الأرض فيها على وضعها الحالي وعلى سرعتها الحالية ونلمس هذه الحركة في الآيات الآتية :

الآية الأولى :

﴿**وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِـي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ**﴾[٥٥] .

يقول الطبري في تفسيره :

ومن نعمة الله عليكم أيها الناس مع التي ذكرها قبل أن سخر لكم الليل والنـهار يتعاقبان عليكم . وهذا لتصرفكم في معاشكم وهذا لسكنكم فيه والشمس والقمر لمعرفـة أوقات أزمنتكم وشهوركم وسنينكم وصلاح معاشكم (والنجوم مسخرات لكم بأمر الله تجري في فلكها لتهتدوا بها في ظلمات البر والبحر) [٥٦] .

ويقول القرطبي :

(وسخر لكم الليل والنهار) أي للسكون والأعمال ، (والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره) أي مذللات لمعرفة الأوقات ونضج الثمار والزرع والاهتداء بالنجوم في الظلمات . وقرأ حفص عن عاصم برفع (والنجوم مسخرات) [٥٧].

وبتتبع أقوال المفسرين في الآية سواء ما ذكرته أم لم أذكره نجد معنى الآية كالآتي :

إن الله قد سخر كلاً من الليل والنهار والشمس والقمر لمصلحة البشرية . والتسخير معناه التذليل أي ذلل هذه الكائنات للناس . ونصب الشمس والقمر عطفاً على الليل والنهار . ورفع النجوم على الاستئناف .

والملاحظ على كلام المفسرين (رحمهم الله) أنهم فسروا الليل والنهار على معناها الأصلي وهو الزمني . أي تسخير زمن الليل وتسخير زمن النهار . وفاتهم أن الليل والنهار أطلقا وأريد لازماً من لوازمهما وهو مكان حدوثهما وهو الأرض . بالإضافة إلى تسخير الضوء والظلمة . ولم يقارنوا معنى التسخير هنا بمعنى الخلق في آيات أخرى ولو تتبعوا ذلك لظهر لهم من تسخير الليل والنهار معنى أوسع مما ذكروه .

هذا المعنى هو الاستدلال بالتسخير على حركة الأرض حول نفسها على كيفية تخالف تلك الكيفية التي كانت عليها في مرحلة الخلق . بمعنى أن لكل من الخلق والتسخير معنى مستقلاً عن الآخر (كما تقدم) فكلمة التسخير في الآية تعني كيفية أخرى استقر عليها الليل والنهار والشمس والقمر خلاف ما كانت عليه في مرحلة التكوين والخلق أي أن التسخير مرحلة لاحقة للخلق . فالليل والنهار في مرحلة الخلق والتكوين كانا يتعاقبان سريعاً على الأرض وذلك ما عبر عنه القرآن بقوله "يطلبه حثيثاً" وهما بهذه الصورة وبهذه الكيفية غير مسخرين وتعاقبهما على هذا النحو السريع يعني بالضرورة سرعة حركة

مكانما وهو الأرض . وهذه الكيفية لحركة الأرض تستلزم عدم صلاحيتها للحياة وبالتالي لا يناسب أن توصف بالتسخير . أما بعد أن استقرت على حركتها الحالية . فإنه يتبع ذلك بطء في تعاقب الليل والنهار . وهذه الصورة هي المثالية لصلاحية الحياة على الأرض وحيث هي كذلك. ناسب أن توصف بالتسخير الذي هو التذليل والاستقرار وهذا التسخير نعمة من الله على البشرية وقد صرحت الآية بأنه لهم . ولا أدل على ذلك من قوله تعالى : ﴿**وَسَخَرَ لَكُمْ**﴾ أي أن هذا التسخير خاص بكم تتوقف عليه حياتكم ومعاشكم. وفي الآية الإشارة إلى حركتين .

الأولى : حركة الشمس والقمر والليل والنهار بخاصة .

والثانية : الإشارة إلى حركة النجوم بعامة .

ولذا جاءت في الآية مرفوعة بخلاف الشمس والقمر والليل والنهار .

والمقصود بالليل والنهار في الآية لوازمهما من الظلمة والضياء ومكان الحدوث الذي هو الأرض .

ولكن لماذا لم يذكر الأرض صراحة ويقول (وسخر لكم الأرض والشمس والقمر ...) وقال (وسخر لكم الليل والنهار والشمس والقمر ...) .

والجواب :

أن الحديث في الآية في مجمله حديث عن أجرام متحركة مرئية للناس فالشمس جرم متحرك والقمر جرم متحرك . والنجوم أجرام متحركة والليل والنهار ظاهرتان متعاقبتان . فحافظ القرآن على هذه البديهة عند العرب حينئذ فذكر الليل والنهار عوضاً عن ذكر الأرض التي لا تتحرك في أنظارهم حفاظاً على ما استقر في نفوسهم من ثباتا من

جهة وانسجاماً مع المعنى العام للآية الذي يتحدث عن أجرام متحركة من جهة أخرى . ومثل ذلك أيضاً قوله تعالى :

﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾[٥٨] .

أي سخر لكم الشمس والقمر والأرض . وبناء على هاتين الآيتين يتضح جلياً أن الأرض انتقلت من مرحلة الدوران السريع حول نفسها الذي عبر عنه القرآن بـ (حثيثاً) إلى الدوران الأخف سرعة والذي عبر عنه القرآن بالتسخير . وهذا التسخير يستدل به على ثبات حركة الأرض حول نفسها بالميزان والمقدار الذين يناسبان حياة البشر . وتكون هاتان الآيتان هما الصورة القرآنية التي استقرت عليها حركة الشمس والقمر والأرض والتي نشأ عنها صلاحية الأرض للحياة وللأحياء . وسوف تبقى هذه الصورة حتى يأذن الله سبحانه وتعالى بتغييرها وذلك بطلوع الشمس من مغربها . على ما سنعرفه لاحقاً إن شاء الله .

الآية الثانية : قال تعالى :

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[٥٩]

السرمد : الدائم الذي لا ينقطع . وهو دوام الزمان من ليل أو نار[٦٠] .

في هذه الآيات الكريمة يلفت المولى عز وجل أنظار الناس إلى الكون وإلى تأمله وتدبره . والتفكير في أحداثه ومستجداته . يلفت أنظارهم إلى ظاهرتين هامتين عظيمتين تتوقف عليهما الحياة هما الليل والنهار . المتكررتان عليهم في كل يوم . يوقظهم وينبههم

بعدم نسيان أهميتهما . وجديتهما . لأن التكرار قد ينسيهم جدتما المتكررة وباستشعار عظمة هاتين الظاهرتين . تستشعر عظمة موجدهما وخالقهما كما تظهر من خلالهما . رحمته ورأفته بعباده. لأن تعاقب الليل والنهار من شأنه استدامة الحياة للكائنات الحية. واستدامة الحيوية والنشاط لها كذلك . ولولاهما . لما استقامت الحياة ولانعدمت كذلك . فينبه المولى الناس. إلى ضرورة استحضار عظمة تلك الظاهرتين وأن تعاقبهما من أجل النعم عليهم . ثم يضرب لهم مثلاً بفقد أحدهما واستدامة الآخر مكانه . فلو كان النهار أبدياً لا يتغير ولا يتبدل . فما الذي سيحصل . أو كان الليل أبدياً لا يتغير ولا يتبدل ما الذي سيحصل . إنه خلل تام في الحياة . ونقص كبير يؤدي إلى انعدامها بالكلية. وظاهرة الليل والنهار من الأمور التي تمنن الله بما على الخلق ولا شك أن تمننه بشيء هو دليل عظمته وأهميته .

والمفسرون رحمهم الله لم يتجاوزوا هذه المعاني التي ذكرت غير أن الإمام ناصـر الدين البيضاوي رحمه الله قد أشار في تفسيره[٦١] إلى سبب حدوث الليل والنـهار واعتـبر الشمس سبباً في ذلك : حيث قال : في تفسير الليل (بإسكان الشـمس تحـت الأرض أو تحريكها حول الأفق الغائر .) وقال في تفسير النهار (بإسكانا في وسط السماء أو تحريكها على مدار فوق الأفق .)

والواقع أن المفسرين رحمهم الله قد نظروا في هاتين الآيتين على اعتبار المعنى الزمني لكل من الليل والنهار وما يحدثه غياب أحدهما المستمر ولم يفطنوا إلى سبب حدوث الليل والنهار وتعاقبهما على الأرض الذي يفهم من الآية نفسها وذلك بالإشارة إلى ثبات إحدى الظاهرتين . وثبات إحداهما لابد له من سبب حتمي انطلاقاً من نظام الله في كونه المبني على الأسباب والمسببات وتعاقبهما إنما يجري وفق ناموس إلهي ترعاه القدرة الإلهية . فثبات أحدهما يعني تعطيل ذلك الناموس الذي على وفقه يتعاقبان على الأرض .

إن ذلك الناموس وذلك القانون الذي بموجبه يتعاقب كل من الليل والنهار على الأرض إنما هو حركة الأرض حول نفسها من الغرب إلى الشرق وبذلك يكون الجزء

الأرضي المقابل للشمس في النهار ويكون الجزء الأرضي المقابل للفضاء الكوني في الليل ومع دورة الأرض حول نفسها يتغير الوضع فيكون الجزء الأرضي المقابل للشمس قد حل محل الجزء المقابل للفضاء الكوني فيكون في الليل . ويكون الجزء الأرضي المقابل للفضاء الكوني قد حل محل الجزء المقابل للشمس فيكون في النهار .

وهكذا يتعاقب الليل والنهار على الأرض بانسجام ودقة كاملين نتيجة حركة الأرض حول نفسها وحول محورها . وثبات الليل أو النهار على الأرض يعني ثبات حركة الأرض من الغرب إلى الشرق وليس ثبات الشمس كما قال البيضاوي رحمه الله .

ولا شك أن تعطيل هذا الناموس وتوقفه يحدث خللاً عظيماً على الحياة وعلى الأحياء وتتغير طبائع الأحياء وتفنى ولا يقتصر ذلك الخلل على الحياة والأحياء فحسب بل يتعدى ذلك إلى جرم الأرض نفسها . فتختل حركتها حول الشمس وتنقص جاذبيتها وحركة الأرض حول نفسها التي ينتج عنها كل من الليل والنهار إنما هو أمر محل امتنان من الله على عبيده ومحل رحمته سبحانه وتعالى ولا أدل على ذلك . من قوله تعالى :

﴿**وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمْ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ**﴾ [القصص : ٧٣] فكل من الليل والنهار نعمة من الله في ذواتهما . وتعاقبهما الناتج عن حركة الأرض حول نفسها نعمة ورحمة من الله . سبحانه وتعالى . فله الحمد والمنة وله الشكر على آلائه ونعمه التي لا تعد ولا تحصى .

فهذه الآيات الثلاث : هي من الآيات الدالة على حركة الأرض حول نفسها وحول محورها وعدم تصريحه تعالى بهذه الحقيقة إنما هو مراعاة لمفاهيم البشر وقت التنزيل حيث لم يكونوا يعلموا أن للأرض حركة حول نفسها وحول محورها فعبر عنها بثبات إحدى الظاهرتين المعروفتين لديهم بالتعاقب والحركة وقصد السبب في ذلك وهو الأرض . والله أعلم.

الآية الثالثة : قوله تعالى :

﴿**ألَمْ تَرَ إلَى رَبكَ كَيْفَ مَد الظل وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُم جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلا ثُم قَبَضْنَاهُ إلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا**﴾ [الفرقان : ٤٥ ، ٤٦]

والمفسرون في **تفسير الظل على أقوال :**

القول الأول : وهو قول الجمهور : الظل من طلوع الفجر إلى طلوع الشمس مثل ظل الجنة ظل ممدود لا شمس فيه ولا ظلمة .

القول الثاني: الظل هو الليل لا ظل الأرض وهو يغمر الدنيا كلها.

القول الثالث : وهو قول أبو عبيده الظل بالغداة والفيء بالعشي .

القول الرابع: وهو قول ابن السكيت : الظل ما نسخته الشمس والفيء ما نسخ الشمس[٦٢]

القول الخامس : وهو قول أبي السعود في تفسيره : الظل ظل أي مظل كان من جبل أو بناء أو شجر عند ابتداء طلوع الشمس ممتداً لا أنه تعالى مدّه بعد أن لم يكن كذلك كما بعد نصف النهار إلى غروبا[٦٣] .

وقول أبي السعود هذا هو القول المختار عندي لما سيأتي تفصيله .

والمفسرون في قوله تعالى ﴿**سَاكِنًا**﴾ أي أنه دائم لا يزول . وقالوا في قوله تعالى : ﴿**ثُم جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلا**﴾ أي تحويه وتذهب به وتنسخه . وقال إبن منظور في لسان العرب (وقوله تعالى : ﴿**ثُم جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلا**﴾ قيل معناه تنقصه قليلاً) وقال : أدل الرجل على أقرانه أي أخذهم من فوق وأدل البازي على صيده كذلك[٦٤]. وهم في قوله تعالى : ﴿**ثُم قَبَضْنَاهُ إلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا**﴾ أي خفيفاً سريعاً وهو قول ابن عباس وابن جرير[٦٥]. وقال أبو السعود : ووصف القبض باليسير على طريقة قوله تعالى: ﴿**ذَلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ**﴾ وصيغة الماضي للدلالة على تحقق الوقوع[٦٦] .

قلت: في هذه الآية المباركة يلفت الله الأنظار إلى ظاهرة يومية محسة مشاهدة دالة على عظمته وقدرته . هي ظاهرة الظلال ظلال الأشياء التي من صفاتها وسماتها الحركة وعدم السكون والتي تحكي رعاية الله وتصريفه لها في كل جزء من الثانية متمنناً سبحانه وتعالى بها على خلقه .

والواقع أن لفت النظر إليها والتمنن بها يوجب التفكير الدقيق فيها وفي أسباب حركتها . لأن هذه الظاهرة ظاهرة الظل إنما تتحرك وفق أسباب ونواميس وقوانين إلهية لمصلحة البشر ولمصلحة الحياة بوجه عام وتوقفها عن الحركة يعني توقف أسباب حركتها وبالتالي انتفاء هذه المصالح المترتبة على حركتها .

ويفهم من هذه الآية في جزئها الأول : ﴿**أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ**﴾ أن حركة الظل هي حركة تحكي نظاماً دقيقاً دؤوباً وأن هذا الظل هو مظهر ذلك النظام ورمزه .

إن هذا النظام الذي يمتد الظل بموجبه هو نظام حركة الأرض حول نفسها وحول محورها في مقابل الشمس فيكون الظل أطول ما يكون عند بداية الشروق ونهاية الغروب والشروق لا يعني ظهور الشمس بذاتها كما أن الغروب لا يعني أفولها بذاتها وإنما يعني مواجهة ذلك الجزء من الأرض للشمس أو خفائه عنها. نتيجة لحركة الأرض حول نفسها ولذا يكون الظل طويلاً عند بداية الشروق وباستمرار التفاف الأرض حول نفسها في مقابل الشمس يتناقص الظل شيئاً فشيئاً حتى يكون ذلك الجزء من الأرض في وضع عمودي مع الشمس ثم يبدأ مد الظل مرة أخرى بتحول ذلك الجزء عن معامدة الشمس وكلما ابتعد عن ذلك كلما زاد الظل حتى الغروب . وسبب ذلك المد للظل ثم الانحسار ثم المد إنما هو حركة الأرض حول نفسها في مقابل الشمس .

ويفهم من قوله تعالى : ﴿**وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا**﴾ أن إسكان حركة الظل تعـني بالضرورة تعطيل سبب حركته وسببها كما قلنا : هو حركة الأرض حول نفسها فـ يعني إسكان الظل : تعطيل حركة الأرض حول نفسها التي ينتج عنها حركة ظلال الأشياء .

ويفهم من قوله تعالى : ﴿**وَلَوْ شَاءَ**﴾ أن هذه الحركة للظل التي هـي في الواقـع نتيجة لحركة الأرض حول نفسها هي الصورة الحقيقية القائمة التي رضيها الله للأرض وهي الصورة المثلى لاستقرار الحياة .

وفي قوله : ﴿**لَجَعَلَهُ سَاكِنًا**﴾ تنويه بالقدرة الإلهية ودعـوة للتفكير واستحضـار ما يترتب على تعطيل ذلك الناموس في حركة الظل بمعرفة أسبابه ومسـبباته . وسـكون الظل عن الحركة إنما يعني سكون سببه وهذا السبب هو حركة الأرض حـول محورهـا وحول نفسها . فإذا وقفت الأرض عن الحركة وقف الظل عن الامتداد .

والسؤال : ماذا يحصل لو وقفت الأرض عن حركتها حول نفسها ووقف تبعاً لذلك الظل ؟

هذا سؤال مهم للغاية . وقد تولى القرآن الإجابة على هذا السؤال : فما هي الإجابة ؟

إن الإجابة قوله تعالى : ﴿**ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا**﴾ أي أن الشمس هي التي تمحوه وتنسخه وتحويه وتذهب به كما ذهب إلى ذلك المفسرون رحمهـم الله تعـالى في تفسيرهم للدليل . ويتولد عندنا تبعاً لذلك سؤال آخر مهم للغاية .

وهو . كيف تمحو الشمس الظل وتنسخه وتحويه وتذهب به ؟

لقد تولى القرآن الإجابة على هذا التساؤل أيضاً وذلك بقولـه تعـالى في الآيـة الأخرى : ﴿**ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا**﴾ . أي قبضاً خفيفاً سريعاً ووصف القبض باليسر

على طريقة قوله تعالى : ﴿ذَلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ﴾ والتعبير بالماضي للدلالة على تحقق الوقوع . هذا ما قاله المفسرون حول كلمة ﴿يَسِيرًا﴾ في الآية.

ومن أجل تحقيق هذا المعنى معنى القبض اليسر . لابد من التذكير بأن للشمس . عدة توابع تسير وتدور حولها . وهي ما يعرف بالمجموعة الشمسية . وهذه التوابع هي عطارد والزهرة والأرض والمريخ والمشتري وزحل وأورانوس ونبتون وبلوتو وهناك أقمار عديدة تتبع كل كوكب من هذه الكواكب ويربط هذا الكوكب بالشمس قانون الجاذبية بين الأجرام . فللشمس قوة جذب هائلة . لما حولها من الكواكب والكويكبات ولذا جعل الله لهذه الكواكب ناموساً يحميها من الوقوع في الشمس هذا الناموس هو قوة الطرد المركزي . فجعل جميع الكواكب تدور حول الشمس بسرعات مختلفة حسب قربها وبعدها عن الشمس . فكلما قرب الكوكب من الشمس زادت سرعته لحمايته من الوقوع فيها وكلما بعد الكوكب قلت سرعته . بالمقدار الذي يحميه من الوقوع فيها . ولهذه الكواكب دورة حول الشمس ودورة حول محاورها . وكل من الدورتين له أثره في مقاومة جاذبية الشمس . ومن هذه الكواكب الأرض التي نعيش عليها . ولها دورتان دورة سنوية حول الشمس ودورة يومية حول نفسها ولكليهما دور في مقاومة الوقوع في الشمس فلو زادت سرعة الأرض حول الشمس لخرجت من مسارها . مدبرة نحو الفضاء الكوني . ولو نقصت سرعتها حول الشمس . لسحبتها وجذبتها إليها واختل نظامها ودورانا وسقطت في الشمس . وكذلك لو توقفت الأرض عن الدوران حول نفسها وحول محورها لاختل توازنا ولاختل مسارها حول الشمس . ولقلت مقاومتها لجاذبية الشمس . ولاتجهت نحو الشمس رويداً رويداً حتى تقع فيها[٦٧] .

وعودة إلى القرآن نجد المولى سبحانه وتعالى قد ذكر أن الشمس هي التي تمحو وتنسخ الظل إذ هو سكن : في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا﴾ ثم حدد الكيفية التي تمحو بها الشمس الظل وذلك بقوله تعالى : ﴿ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا﴾ وإذا استحضرنا صورة المجموعة الشمسية ونظامها بما في ذلك الأرض سهل علينا تصور

المعنى . وذلك أن الأرض في حالة سكونا عن الدوران حول نفسها يسكن معها الظـل ويختل بذلك نظام حركتها حول الشمس ونظام توازنا لأن حركتها حول نفسها تحميها من الخلل وتحميها من الوقوع في الشمس نتيجة جاذبية الشمس لها . وبناء على ذلـك : فإنا عند سكونا ستنجذب نحو الشمس وتقرب منها سريعاً وبالتالي تمحو الشمس الظـل تدريجياً لقربه منها حتى يتلاشى تماماً بوقوع الأرض في الشمس . فياله من تمنن ويالها مـن نعمة أنعم الله با على خلقه أن مد الظل ولم يجعله ساكناً ولم يقبضه إليه قبضاً يسيراً .

إن معرفة أحوال الشمس وتوابعها يساعدنا على استجلاء بعض معاني هذه الآيات العظيمة التي لامست هذه الموجودات .

والواقع أن هاتين الآيتين من الآيات التي تحير العلماء في فهم معانيهما وقد لمست ذلك من خلال استعراض أقوال المفسرين رحمهم الله المتعددة .حيث أدركت شعورهم بأن هناك معنى مفقوداً لم يستطيعوا الوصول إليه . وقد فوض كثير منهم معـنى الآيـة إلى الله حيث قالوا بعد تفسيرها - والله تعالى أعلم - وبعضهم أرجع ذلـك إلى يـوم القيامـة خصوصاً في معنى قوله تعالى : ﴿**ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا**﴾ وقد تعددت أقوال المفسرين تعدداً كبيراً في معنى هاتين الآيتين . وذلك دليل على غياب المعنى الحقيقي للآية عندهم . ولم أجد منهم من ذكر هذه المعاني التي جئت با . وهم رحمهم الله معذورون تمام المعذرة. لأن إدراك مثل هذه المعاني يتوقف على معرفة أحوال الأرض والشمس والقمر وحركـة هذه الكواكب وحركة النجوم . وأشكالها وهيئاتا . وتلك معرفة لم تكن وضـحت في عصورهم بذه الدقة وبذا التفصيل . وقد انعكس معرفة هذه الأحوال . عند بعض المحدثين من المفسرين . ووظفت هذه المعلومات في تفسير الآيات . فقد فطـن إلى ذلـك . مـن المحدثين :

السيد قطب رحمه الله حيث قال : في تفسير هاتين الآيتين ما نصه : (... فبنـاء الكون المنظور على هذا النسق وتنسيق المجموعة الشمسية هذا التنسيق هو الذي جعل الظل متحركاً هذه الحركة اللطيفة ولو اختلف ذلك النسق أقل اختلاف لاختلفت أثاره في الظل

الذي نراه لو كانت الأرض ثابتة لسكن الظل فوقها لا يمتد ولا يقبض ولو كانت سرعتها أبطأ أو أسرع مما هي عليه لكان الظل في امتداده وقبضه أبطأ وأسرع فتنسيق الكون المنظور على ناموسه هذا هو الذي يسمح بظاهرة الظل ويمنحها خواصها التي نراها[٦٨]) .

وفطن إلى ذلك أيضاً السيد حنفي[٦٩] أحمد رحمه حيث قال : في قوله تعالى : ﴿وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا﴾ قال (أي ولو شاء لجعل الظل ساكناً بسكون الأرض ودوام ضياء الشمس على الأرض أو بعدم طلوعها ودوام ظل الأرض عليها . وكلا الحالين مهلك للحياة على الأرض ومبطل لتعاقب الليل والنهار وهذه الجملة تنبيه لحكمته تعالى ورحمته بالناس) .

وفطن إلى ذلك أيضاً : السيد محمد وفا الأميري[٧٠] حيث قال في قوله تعالى : ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا﴾ قال : (فيها إشارة إلى دوران الأرض حول نفسها كل ٢٤ ساعة الذي ينشأ عنه امتداد الظل وطوله وغروبه باتجاه الغرب ولو كانت الأرض ثابتة لوقف الظل وحركته ولأصبحت الأرض لها وجه مظلم وآخر منور) .

وهؤلاء جميعاً لم يتعرضوا للمعنى الذي ذكرته حول قوله تعالى : ﴿ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا﴾ وذلك بوقوع الأرض في الشمس نتيجة توقف حركتها حول نفسها . فهاتان الآيتان من الآيات الدالة على حركة الأرض حول نفسها وحول محورها . إذ أشار القرآن إلى حركة الظل المعهود والمحسوسة لدى العرب وأراد لازم هذه الحركة وهي حركة الأرض ولا أدعي أبداً بأي حال من الأحوال أن المعاني التي ذكرت : هي المعاني الحتمية للآية . أو أننا قد استنفذت معنى الآيات . ولكن هو اجتهاد والمجتهد يخطئ ويصيب .

الآية الرابعة : قوله تعالى :

﴿**يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِأُولِي الْأَبْصَارِ**﴾[٧١].

وفي هذه الآية أيضاً دلالة على حركة الأرض حول نفسها حيث أطلق كلاً من الليل والنهار وأراد لازماً من لوازمهما يعقل فيه التقلب وهو مكان حدوثهما الذي هو الأرض. فيكون تأويل الآية على هذا (يقلب الله الأرض إن في ذلك لعبرة لأولي الأبصار) وتقليب الأرض الذي ينتج عنه تعاقب الليل والنهار هو حركتها حول نفسها . ولم يصرح القرآن بذا مراعاة لمفاهيم البشر وقت التنزيل .

الآية الخامسة : قوله تعالى :

﴿أَلَمْ نَجْعَلْ الْأَرْضَ كِفَاتًا أَحْيَاءً وَأَمْوَاتًا وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ شَامِخَاتٍ وَأَسْقَيْنَاكُمْ مَاءً فُرَاتًا﴾[٧٢]

يقول الطبري في **تفسيره :**

كفاتاً : وعاءً تقول هذا كفت هذا وكفيته إذا كان وعاءه . وإنما معنى الكلام ألم نجعل الأرض كفات أحيائكم وأمواتكم تكفت أحياءكم في المساكن والمنازل فتضمهم فيها وتجمعهم وأمواتكم في بطونها في القبور . فيدفنون فيها .[٧٣]

ويقول الزمخشري :

الكفات من كفت الشيء إذ ضمه وجمعه .[٧٤]

ويقول الرازي :

وجراب كفيت وكفت إذا كان لا يضيع شيئاً مما يجعل فيه.[٧٥]

ويقول القرطبي :

أي ضامة تضم الأحياء على ظهورها والأموات في بطونها.[٧٦]

ونقل عن الخليل قوله :

التكفيت : تقليب الشيء ظهراً لبطن أو بطناً لظهر ويقـال انكفـت القـوم إلى منازلهم أي انقلبوا .

وفي **لسان العرب :**

كَفَتَ يكفِتُ كفْتاً وكَفَتَاناً وكِفاتاً : أسرع في العدو والطيران وتقـبض فيـه . وفرسٌ كَفْتُ : سريع ، وعدو كفيت : أي سريع . والكَفْتُ : السوق الشديد . تقلـب الشيء ظهراً لبطن وبطناً لظهر . [٧٧]

وبالتأمل في أقوال المفسرين واللغويين حول معنى كلمة (كفت) يتضـح أن لهـا معنيين :

المعنى **الأول :** الضم والجمع .

المعنى **الثاني :** الحركة والإسراع والتقليب .

ويتضح أن المفسرين رحمهم الله قد وظفوا المعنى الأول لشرح الآيـة ولكنـهم لم يوظفوا المعنى الثاني - وهم معذورون - فقالوا في المعنى الأول : أي تضم وتجمع الأحيـاء على ظهرها والأموات في بطنها .

أما المعنى الثاني : وهو الحركة والإسراع والتقليب . فلم أر من وظفه لشرح الآية والواقع أن كلمة كفت : من الكلمات التي لها معنيان مختلفان في اللغة ولكننا نرى القرآن قد جاء بما هنا مع إرادتما معاً في وقت واحد . وهذا من بلاغة القـرآن وإعجـازه . فيكون معنى الكفت في الآية :

الضم والجمع والحركة والإسراع والتقليب . فكأن القـرآن يقـول : ألم نجعـل الأرض ضامة جامعة متحركة مسرعة متقلبة . وعلى هذا يفهم من الآية معنيان مهمـان للغاية .

أما المعنى الأول : فيؤخذ من المعنى الأول : للكلمة الذي هو الضم والجمع ويتفق مع أقوال المفسرين . وهذا المعنى : هو جاذبية الأرض . الذي يتفق مع ما توصل إليه العلم الحديث بأن للأرض قوة ذاتية هي قوة الجاذبية التي هي السبب في بقاء الموجودات التي على ظهرها من بشر وحيوانات ومياه وغلاف جوي وخلافة . حيث تعمل قوتا الذاتية على ضم هذه الأشياء وعدم التفريط فيها . ولو لم تكن كذلك لتسرب غلافها الجوي ولما استطاع الإنسان البقاء عليها وكذلك الحيوان والماء .

وأما المعنى الثاني : فيؤخذ من المعنى الثاني للكلمة : الذي هو الحركة والإسراع والتقليب وهذا المعنى هو حركة الأرض وتقلبها أي دورانا حول نفسها . والمعنى يتفق مع ما جاء به القرآن والعلم الحديث (كما تقدم) من حركة الأرض حول نفسها وحول محورها . فكأن الله يقول (ألم نجعل الأرض متحركة) وهذا المعنى هو المناسب لتمنن الله سبحانه وتعالى على عبيده أن جعلها كذلك . حيث تتوقف الحياة ولوازمها على هذه الحركة .

ومما يساعد على تصور معنى الحركة هذا سياق الآيات قبلها وبعدها . إذ نلحظ في الآيات التي قبلها استعراض المولى لقدرته في خلق الإنسان من ماء مهين ورعاية هذا الماء في قرار مكين والإشادة بعظمته سبحانه وتعالى في خلق الإنسان وتيئته للحياة ثم نلحظ كذلك تمننه على الإنسان باستعراض آخر لقدرته من أجل الإنسان إذ هيأ الأرض لحياته وذلك بإشارته إلى جعلها قابضة له . محافظة على توازنه واستقراره وجعلها أيضاً متحركة لاستدامة أسباب صلاحيتها للحياة .

وأما سياق الآيات بعدها الذي يساعدنا على تصور معنى حركتها . فهو ذكر الجبال والماء حيث قال تعالى :

﴿**وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ شَامِخَاتٍ وَأَسْقَيْنَاكُمْ مَاءً فُرَاتًا**﴾ [المرسلات : ٢٧]

إذ من المعلوم أن الرواسي تثبت الأرض كما قـرر القرآن ذلك في قـوله تعالى : ﴿**أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا**﴾[٧٨] والمقصود تثبيت قشرتنا لأن لحركة الأرض الكلية تأثير على استقرار قشرتنا بالإضافة إلى عوامل أخرى مؤثرة في حركة القشرة .

فكأن خلق الجبال جاء لأداء مهمة استقرار القشرة الأرضية . نتيجة لتلك الحركة وبما أن الأرض متحركة فإن من لوازم ذلك ارتباك في أجزائها ولذلك كان من المناسـب خلق الرواسي لتكون موازين وضوابط لنتائج هذه الحركة . والمعلوم أن وجود الأمطـار مرتبط بوجود السحاب ووجود السحاب مرتبط بوجود الرياح . والجبال .

(وحركة الرياح أصلاً مرتبطة بحركة الأرض حول نفسها) [٧٩] . إذْ لـو لم تكـن متحركة حول نفسها لما تحركت الرياح . ولما تكون سحاب ولما نزل غيث ولما تـوفرت المياه . وصلحت الحياة . وصدق الله ﴿**وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ**﴾ . وحيث إن وجـود هذه الظواهر مرتبط بهذه الحركة الكلية للأرض حول نفسها كان من المناسب الإشارة إلى هذا السبب الخافي على كثير من الناس والتنمن به عليهم .

وهكذا نستشعر من هذه الآية الكريمة حركة الأرض حول نفسها كما نستشعر ما يترتب عليها من أسباب لاستدامة حياة الكائنات الحية ومن ضمنها الإنسان . فله الحمـد والمنة على خلقه وقوانينه ونواميسه .

وأما حركة الانقلاب :

فكيفيتها تحول حركة الأرض إلى عكس حركتها الحاليـة أي مـن الشـرق إلى الغرب. وحينئذ تطلع الشمس من مغربها. ونلمس ذلك في قوله تعالى : ﴿**رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ**﴾[٨٠]

أقوال المفسرين رحمهم الله تعالى في تفسير الآية :

يقول الطبري :

رب المشرقين : يعني بالمشرقين مشرق الشمس في الشتاء ومشرقها في الصيف .

ورب المغربين : يعني ورب مغرب الشمس في الشتاء ومغربا في الصيف. [٨١]

ويقول القرطبي :

أراد بالمشرقين أقصى مطلع تطلع فيه الشمس في الأيام الطوال . وأقصر يوم في الأيام القصار . [٨٢]

ويقول الفخر الرازي :

مشرق الشتاء ومشرق الصيف . [٨٣]

ويقول سيد قطب :

مشرقي الشمس المختلفي الموضع في الصيف والشتاء ومغربيها كذلك. [٨٤]

وجملة هذه الأقوال أن المقصود بالمشرقين مشرقي الشتاء والصيف وبالمغربين مغربيهما وهذا التفسير تفسير مقبول وهو المتبادر للذهن وهو المشاهد والمحسوس إذ للشمس في كل يوم مشرق ومغرب على مدار العام ثم تعود الكرة . كما قرر المفسرون . وآخر مشرق في الصيف له دلالة وتأثير على الحياة . كما أن آخر مشرق في الشتاء له دلالة وتأثير على الحياة أيضاً . وذلك بتغير الجو حرارة ورطوبة وبرودة واعتدالاً وهذه الظواهر والاختلاف في طول الأيام وقصرها من أسباب استدامة الحياة وصلاحيتها ولهذا كان التفسير مقبولاً ومنطقياً ومتمشياً مع ظاهر النص وملائماً لتمنن الله بذه الظاهرة .

لكنني أرى أن الآية تعطي معنىً آخر إضافياً وأعمق لا يتصادم مع ما ذكره المفسرون يحكي إخباراً عن غيب منظور وهو شروق الشمس من مغربا بدلاً من شروقها المعهود وإذا تحقق ذلك كان للشمس مشرقان ومغربان مختلفان على الحقيقة .

وإذا عدنا إلى ما قررناه سابقاً من أن تعاقب الليل والنهار إنما هو ناشئ عن حركة الأرض حول نفسها من الغرب إلى الشرق فإن ظهور الشمس بعكس ذلك يعـني تغـير حركة الأرض المعهود حول نفسها إلى عكس ذلك .

وإذا تم شرقت الشمس من المغرب وأصبحت الأرض تدور حول نفسها من الشرق إلى الغرب وأصبح المشرق مغرباً والمغرب مشرقاً .

وبعد هذه اللفتة القصيرة لنعمة الله على عبيده بانتظام الشمس في مشارقها ومغاربا المعهودة صيفاً وشتاءً وربو بيته لهذه الظواهر وأسبابا . يذكر الخلق بجليل هذه النعمة التي عليها حياتم ووسائل عيشهم ويلفت الأنظار إلى إمكانية تحول هذه النعمة إلى ضدها وهو تغير شروق الشمس من مكانا المعتاد إلى مكان غير معتاد وهو طلوعها من مغربا .

ولذلك تمنن سبحانه وتعالى وقال بعد هذه الآية المباركة : ﴿**فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَـا تُكَذِّبَانِ**﴾ لأن استدامة حركة الأرض بذه الهيئة وبذه الكيفية التي هي عليها الآن من أجل النعم على الخلق والتغير فيها يعني قصور أسباب الحياة والارتباك الكامل في حياة البشـر . فأي نعمة هذه التي ينعم با الخلق وهي طلوع الشمس وغروبا من أماكنها المعتادة .

إن حركة الأرض حول نفسها نعمة من نعم الله تمنن با على عبيده في غير ما موضع من كتابه العزيز في أسلوب بلاغي بديع .

وشروق الشمس من مغربا فيما يستقبل من الزمان أمر حتمي شرعاً وعلماً .

فأما الشرع فهو ما أخبر به الصادق المصدوق سيدنا محمد رسول الله عليه الصلاة والسلام بأن من علامات الساعة . طلوع الشمس من مغربا وذلك فيمـا رواه الإمـام البخاري رحمه الله عن أبي اليمان أخبرنا شعيب حدثنا أبو الزناد عن عبد الرحمن عـن أبي

هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال : (لا تقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها فإذا طلعت فرآها الناس آمنوا أجمعون فذاك حين لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيراً ولتقومن الساعة وقد نشر الرجلان ثوبهما بينهما فلا يتبايعانه ولا يطويانه ولتقومن الساعة وقد إنصرف الرجل بلبن لقحته فلا يطعمه ولتقومن الساعة وهو يليط حوضه فلا يسقي فيه ولتقومن الساعة وقد رفع أحدكم أكلته إلى فيه فلا يطعمها) [٨٥]

وأرى أن هذا الحديث الشريف المخبر عن الغيب شارح لهذه الآية الكريمة .

وأما طلوع الشمس من مغربها من الناحية العلمية :

فقد قرر العلم الحديث . أن الأرض تدور حالياً حول نفسها من المغرب إلى المشرق وأن هذا الدوران في تباطؤ مستمر . وسوف تعكس حركتها حول نفسها لتصبح من الشرق إلى الغرب وحينئذ تطلع الشمس من مغربها .

يقول الدكتور : زغلول راغب النجار :

(والسبب في تناقص عدد أيام السنة مع مرور الزمن هو تناقص سرعة دوران الأرض حول محورها بالتدريج بمعدل ٠,٠٠١ من الثانية في كل قرن من الزمان . وباستخدام ذلك المعدل وصل العلماء إلى أن سرعة دوران الأرض عند بدء الخلق كان أعلى بكثير من معدلاتها الحالية مما يصل بعدد أيام السنة إلى حوالي ٢١٩١,٥٠ يوماً وبطول اليوم (نهاره وليله) إلى أربع ساعات فقط وباستخدام ذلك المعدل في حسابات مستقبلية وصل العلماء إلى أن تباطؤ سرعة دوران الأرض حول محورها أمام الشمس سوف يستمر إلى أن تتغلب جاذبية الشمس فتعكس اتجاه دوران الأرض الحالي مما يؤدي إلى عكس اتجاه شروق الشمس وغروبها (أي تشرق من الغرب وتغرب من الشرق) تصديقاً لنبوة المصطفي ﷺ الذي وصفها بأنها من العلامات الكبرى للساعة . [٨٦]

وهكذا نرى تطابق الحقائق العلمية مع القرآن الكريم وصحيح السنة النبوية الشريفة ونرى كذلك أن الحقائق العلمية . توسع لنا دلالات النصوص القرآنية والنبوية .

فوائد دوران الأرض حول نفسها :

لدوران الأرض حول نفسها فوائد عديدة وضرورية للحياة لا تستقيم الحياة بدونا بل تنعدم تماماً . ومن تلك الفوائد ما يلي :

١ - ثبات الأرض في مدار محدد حول الشمس [لأنه ينتج عن حركة الأرض حول محورها قوة طرد مركزية تتناسب مع قوة جذب الشمس لها] [٨٧] . يكون سبباً في بقائهـا في إطار ذلك المدار . لا تبتعد عن الشمس ولا تقترب منها . لأننا لو ابتعـدت عـن الشمس إختلت الحياة عليها ولو اقتربت لاختلت كذلك .

٢ - الحفاظ على ثقلها وقوة جاذبيتها . لأن حركتها حول نفسها يسبب تجمع المعـادن الثقيلة في باطنها كالحديد والنيكل ويسبب تجمع المعادن الخفيفة على قشرتنا ولـولا تجمع هذه المعادن الثقيلة في باطنها لما استطاعت أن تحتفظ بما يوجد على سـطحها ولانفلت غلافها الغازي في الفضاء . لضعف قوة جاذبيتها[٨٨] .

٣ - المعادن الثقيلة التي تجمعت في باطن الأرض تتفاعل تفاعلاً مستمراً مع المواد المشـعة المتمركزة هي الأخرى في باطن الأرض ويتولد عن هذا التفاعل طاقة حرارية هائلـة تعمل على رفع درجة حرارة باطن الأرض آلاف الدرجات المئوية وينجم عن ذلـك انصهار المعادن وتحولها من الحالة الصلبة إلى مواد سائلة ثم إلى أخرى غازيـة . وإذا فرض عدم خروج وانبثاق هذه الغازات الملتهبة من باطن الأرض لتعرضـت الكـرة الأرضية للانفجار ولك أن تتصور قوة ذلك الانفجار . ومن حكمة الله عز وجـل لإبقاء الأرض في حالتها واحتفاظها بتوازننا بـين كواكـب المجموعـة الشمسـية

وصلاحيتها لحياة الإنسان أن جعل باطن الأرض يتشقق شقوقاً طولية عميقة جـداً تسهم بدورها في خروج بعض الغازات المحبوسة الملتهبة في باطنها وانبثـاق بعـض المصهورات والحمم النارية عن طريق البراكين النشطة الثـائرة . ومعـنى ذلـك أن البراكين التي يعدها الكثيرون من الكوارث الطبيعية هي في الحقيقة العامل الرئيسـي الذي يحفظ للأرض بقائها وكل هذه العمليات نتيجـة لـدوران الأرض حـول نفسها. [٨٩]

٤ - تكون الغلاف الغازي للأرض والمسطحات المائية من محيطات وبحار وأنـار سـببه دوران الأرض حول نفسها والذي ينتج عن هذا الدوران خـروج هـذه الغـازات والأبخرة من باطن الأرض إلى سطحها . ولا يخفي على أحد حتميتها وضـروريتها للكائنات الحية . [٩٠]

٥ - حركة الرياح تتوقف على دوران الأرض حول نفسها ولو لم تكن كذلك لما تحـرك الهواء ولما تكون سحاب ونزل غيث. [٩١]

٦ - دوران الأرض حول نفسها هو السبب في بقاء مياه البحار والمحيطـات في أماكنـها ولولاه لفرغت من مياهها[٩٢] وترتب على هذا الفراغ انعدام السحب والأمطار .

وغير هذا كثير . وأمر هذه فوائده ومزاياه حقيق بالإشارة والذكر والتمنن من الله به على عباده.

الخاتمة

وبعد هذه الجولة وهذه السياحة في آفاق هذه الآيات التي تضمنها هذا البحـث يحسن بنا أن نلخص أهم نتائجه ونوجزها فيما يلي :

١ - الحركة الدائبة والمستمرة للكون ومكوناته .

٢ - للأرض حركات متعددة حول نفسها وحول الشمس ومع الشمس .

٣ - يرد كل من الليل والنهار في القرآن الكريم بمعناهما الزمني ويردان بمعنى لوازمهما من الضياء والظلمة ومكان الحدوث وسببه .

٤ - معرفة حركة الأرض حول نفسها تفهم من خلال الإشارة إلى الليل والنهار وتعاقبهما واختلافهما وآيات أخرى .

٥ - لحركة الأرض حول نفسها في القرآن ثلاث هيئات وكيفات سريعة ، وبطيئة ، وانقلاب وكل هيئة وكيفية مرتبطة بمرحلة من مراحل الخلق والتسخير .

٦ - حركة الأرض حول نفسها هي سبب تعاقب الليل والنهار .

٧ - التسخير مختلف عن الخلق في المعنى والرتبة .

٨ - السبح غير الجري في المعنى . وليسا كلمتين مترادفتين .

٩ - توقف الحياة على حركة الأرض حول نفسها .

١٠ - موافقة العلم الحديث للقرآن الكريم في إثبات حركة الأرض حول نفسها .

وأخيراً فالشكر لله على نعمة الإسلام والإيمان وله الحمد والمنة على آلائه ونعمه التي لا تعد ولا تحصى . وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

الهوامش

(١) الذاريات آية ٤٧ .

(٢) التكوير آية ١٥ : ١٦ .

(٣) الزمر آية ٥ .

(٤) الأنبياء آية ٣٣ .

(٥) القرآن وعلم الفلك . ص ١٤٩ لأحمد جبالية . الدار العربية للكتاب .

(٦) التفسير العلمي للآيات الكونية في القرآن لحنفي أحمد ص ٢٨٠ . دار المعارف .

(٧) ويسمى ذلك في علوم البلاغة بالمجاز المرسل الذي علاقته الحالية . حيث أطلق الحال وأراد المحل .

(٨) موسوعة غينيس في الفلك ص ٧ ص ٢١ ص ٥٩ . تأليف باتريك موور الطبعة الرابعة الدار العربية للعلوم. ترجمة مركز التعريب والبرمجة . الدار العربية ، وموسوعات الوافي بالمعلومات . ١٩٩٥ . إعداد : الفانا مصطفى حمود . دار الفكر بيروت .

(٩) د. زغلول راغب النجار : مجلة القافلة ، صفر ١٤١٧هـ يونيو ١٩٩٦م .
(١٠) سورة الأنبياء آية ٣٢ .
(١١) جامع البيان عن تأويل آي القرآن لابن جرير الطبري ٢٢/١٧ ، ٢٣ ، ٢٤ الطبعة الثالثة، الحلبي .
(١٢) الكشاف للزمخشري ٥٧١/٢ ط الحلبي .
(١٣) مفاتيح الغيب للفخر الرازي ١٦٧/٢٢ دار إحياء التراث العربي .
(١٤) الجامع لأحكام القرآن ٢٨٦/١١ دار الكتاب العربي - القاهرة .
(١٥) تفسير ابن كثير ١٧٨/٣ .
(١٦) إرشادات العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم لأبي السعود ٦٦/٦ دار المصحف .
(١٧) في ظلال القرآن لسيد قطب ٢٣٧٧/٤ دار الشروق .
(١٨) تفسير الآيات الكونية لحنفي أحمد ص ٢٨٨ بتصرف .
(١٩) تفسير الآيات الكونية لحنفي أحمد ص ٢٨٨ بتصرف .
(٢٠) سورة الأنبياء . آية ٣٣ .
(٢١) سورة الرعد . آية ٢ .
(٢٢) سورة الزمر . آية ٥ .
(٢٣) المفردات في غريب القرآن ص ٢٢١ ط الحلبي .
(٢٤) أساس البلاغة للزمخشري ٤١٨/١ ط الهيئة المصرية للكتاب .
(٢٥) بصائر ذوي التمييز ١٧٢/٣ الطبعة الثالثة لجنة إحياء التراث .
(٢٦) تفسير الآيات الكونية لحنفي أحمد ص ٢٨٩ بتصرف .
(٢٧) المفردات في غريب القرآن للراغب الأصبهاني ص ٩٢ ط الحلبي .
(٢٨) لسان العرب ١٤٠/١٤ دار صادر .
(٢٩) أساس البلاغة للزمخشري ١٢١/١ .
(٣٠) سورة الرعد . آية ٢ .
(٣١) سورة التكوير . آيه ١٥ - ١٦ .
(٣٢) سورة الزخرف . آية ٥١ .
(٣٣) سورة ص . آية ٣٦ .
(٣٤) سورة الأنبياء . آية ٨١ .
(٣٥) سورة الرحمن . آية ٥٠ .
(٣٦) الغاشية . آية ١٢ .

(٣٧) سورة البقرة . آية ١٦٤ .
(٣٨) سورة إبراهيم . آية ٣٢ .
(٣٩) سورة لقمان . آية ٣١ .
(٤٠) تفسير الآيات الكونية في القرآن . لحنفي أحمد ص ٢٩٢ دار المعارف .
(٤١) البحر المحيط لأبي حيان ٣١٠/٦ .
(٤٢) سورة يوسف . آية : ٤ .
(٤٣) سورة الأعراف . آية ٥٤ .
(٤٤) لسان العرب (١٢٩/٢) دار صادر .
(٤٥) تفسير الطبري ٢٠٥/٩ ط الحلبي .
(٤٦) التفسير الكبير للفخر الرازي . ١١٧/١٤ ، ١١٨ .
(٤٧) فتح القدير لمحمد بن علي الشوكاني ٢٢٠/٢ دار الوفاء .
(٤٨) النحل . آية ٨١ .
(٤٩) تفسير الآيات الكونية في القرآن / حنفي أحمد ص ٢٨١ دار المعارف .
(٥٠) المفردات في غريب القرآن للراغب الأصبهاني . ص ١٥٦ ط الحلبي .
(٥١) المفردات في غريب القرآن للراغب الأصبهاني . ص ٢٢٧ ط الحلبي .
(٥٢) لسان العرب لابن منظور ٣٥٣/٣ دار صادر .
(٥٣) سورة النحل . آية ١٢ .
(٥٤) سورة فصلت . الآية ٥٣ .
(٥٥) سورة النحل . آية ١٢ .
(٥٦) جامع البيان للطبري ٨٧/١٤ .
(٥٧) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٨٣/١٠ .
(٥٨) سورة إبراهيم . آية ٣٣ .
(٥٩) سورة القصص . الآيات ٧١ ، ٧٢ ، ٧٣ .
(٦٠) اللسان ج٣ ص ٢١٢ .
(٦١) أنوار الت يل وأسرار التأويل ، المعروف بتفسير البيضاوي جـ ٣ ص١٣٢ مؤسسة شعبان بيروت.
(٦٢) البحر المحيط لأبي حيان ٥٠٣/٦ .
(٦٣) تفسير إبي السعود ٢٢٣/٦ .
(٦٤) اللسان ٢٤٩/١١ - ٢٤٨ .

(٦٥) تفسير الطبري ١٩/١٩ .
(٦٦) تفسير أبي السعود ٢٢٣/٦ .
(٦٧) من الإعجاز العلمي في القرآن الكريم في ضوء الدراسات الجغرافية الفلكية والطبيعية . للأستاذ الدكتور : حسـن أبو العينين ١٦٤/١ – ١٦٥ . بتصرف – مكتبة العبيكان بالرياض .
(٦٨) في ظلال القرآن ٢٥٦٩/٥ دار الشروق .
(٦٩) التفسير العلي للآيات الكونية ص ٣٤٩ ط دار المعارف .
(٧٠) الإشارات العلمية في القرآن الكريم . ص ٣٩ ط ٢ .
(٧١) سورة النور . آية ٤٤ .
(٧٢) سورة المرسلات . الآيات ٢٥ ، ٢٦ ، ٢٧ .
(٧٣) تفسير الطبري ٢٣٦/٢٩ .
(٧٤) الكشاف للزمخشري ٢٠٣/٤ .
(٧٥) التفسير الكبير ٢٧٣/٣٠ .
(٧٦) تفسير القرطبي ١٦٠/١٩ .
(٧٧) لسان العرب لابن منظور ٧٨/٢ دار صادر .
(٧٨) سورة النبأ . آية ٦ ، ٧ .
(٧٩) الموسوعة العلمية الميسرة . ص ٢٩ . مكتبة لبنان .
(٨٠) سورة الرحمن . آية ١٧ .
(٨١) تفسير الطبري ١٢٧/٢٧ ط الحلبي .
(٨٢) تفسير القرطبي ٦٤/١٥ دار الكاتب العربي القاهرة .
(٨٣) التفسير الكبير ٩٩/٢٩ دار إحياء التراث .
(٨٤) في ظلال القرآن ٣٤٥٢/٦ دار الشروق .
(٨٥) فتح الباري ٣٥٢/١١ دار الباز للنشر والتوزيع مكة المكرمة .
(٨٦) مجلة القافلة . صفر سنة ١٤١٧ ص ٩ .
(٨٧) من الإعجاز العلمي في القرآن الكريم . د/ حسن أبو العينين ٥٣/٢ مكتبة العبيكان .
(٨٨) المصدر نفسه (بتصرف) .
(٨٩) المصدر نفسه بتصرف ص ٥٥ .
(٩٠) المصدر نفسه بتصرف ص ٥٦ .
(٩١) المصدر نفسه ص ٥٧ بتصرف .

(٩٢) مع الله في السماء للدكتور / أحمد زكي ص ٧٣ بيروت . بتصرف .

المراجع

١ - القرآن الكريم .

٢ - ابن حجر ، أحمد بن على ، فتح الباري شرح صحيح البخاري ، دار المعرفة للطباعة والنشر ، بيروت ، لبنان .

٣ - ابن كثير ، إسماعيل ، تفسير القرآن العظيم ، دار الفكر ، بيروت .

٤ - ابن منظور، جمال الدين محمد، لسان العرب، دار صادر، بيروت، لبنان .

٥ - أبو حيان ، محمد بن يوسف ، البحر المحيط ، دار الكتاب الإسلامي . القاهرة ، الطبعة الثانية ١٤١٣هـ .

٦ – أبو السعود ، محمد بن محمد العبادي ، إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم ، دار المصحف، القاهرة ، مصر .

٧ - أبو العينين ، حسن ، من الإعجاز العلمي في القرآن الكريم، مكتبة العبيكان ، الرياض .

٨ - أحمد ، حنفي ، التفسير العلمي للآيات الكونية في القرآن الكريم ، دار المعارف ، القاهرة .

٩ - الأصبهاني ، الراغب ، المفردات في غريب القرآن الكريم ، مكتبة العبيكان ، الرياض .

١٠ - الأميري ، محمد وفا ، الإشارات العلمية في القرآن الكريم الطبعة الثانية دار الرضوان سوريا .

١١ - البيضاوي ، عبد الله عمر ، أنوار التنزيل وأسرار التأويل ، مؤسسة شعبان ، بيروت .

١٢ - جبالية ، أحمد ، القرآن وعلم الفلك ، الدار العربية للكتاب ، طرابلس ، ليبيا .

١٣- حسب النبي ، منصور محمد ، الكون والإعجاز العلمي للقرآن ، شركة دار الصفا للطباعة ، مصر ، القاهرة .

١٤ - حمود ، الغانا مصطفى ، موسوعات الوافي بالمعلومات ١٩٩٥ بيروت ، لبنان .

١٥ - الرازي ، الفخر ، مفاتيح الغيب ، الطبعة الثالثة ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، لبنان .

١٦ - زكي ، أحمد ، مع الله في السماء ، بيروت ، لبنان .

١٧ - الزمخشري ، محمود ، أساس البلاغة ، الهيئة المصرية للكتاب ، القاهرة ، مصر .

١٨ - الزمخشري ، محمود ، الكشاف ، طبعة الحلبي ، القاهرة ، مصر .

١٩ - الشوكاني ، محمد علي ، فتح القدير ، الطبعة الأولى ، دار الوفاء ، المنصورة ، مصر .

٢٠ - الطبري ، محمد بن جرير ، جامع البيان عن تأويل آي القرآن ، طبعة الحلبي .

٢١ - الفيروزأبادي ، محمد يعقوب ، بصائر ذوي التمييز ، لجنة إحياء التراث .

٢٢ - القرطبي ، أبي عبد الله محمد ، الجامع لأحكام القرآن ، دار الكتاب العربي .

٢٣ - قطب ، سيد ، في ظلال القرآن ، دار الشروق .
٢٤ - مجلة القافلة ، صفر ١٤١٧هـ- يونيو ١٩٩٦ .
٢٥ - الموسوعة العلمية الميسرة ، مجموعة مؤلفين ، مكتبة لبنان .
٢٦ - موور ، باتريك ، موسوعة غينيس في الفلك ، الطبعة الرابعة ، الدار العربية للعلوم .

Movement of the Earth around itself in the Holy Quran

A. H. Al-Shehry

College of Education,
King Faisal University,
Kingdom of Saudi Arabia

Abstract:

The present paper studies the Quranic verses (ayaat) which make some reference to the movement of the earth around itself. It also states the known scientific facts about this phenomenon. The paper shown the agreement of empirical fact obtained from modern science with the references to this phenomenon in the Holy Quran. It is concluded that scientific facts do not conflict with the references of the Holy Quran.